د. إيمان بقاعي



رواية جرَتْ أحداثُها، وتُذُكِّرَت من قِبَل بطليْها خلالَ يومٍ واحدٍ

الأثـيـر

(رواية)

د. إيمان بقاعي

الأثـيــر

(رواية)

علَّمتْني حِلْوةُ الحِلْوِينْ، انْ فلَّيْتْ إتْرُكْ
عطرْ بهالْكَوْنْ.

سعيد عقل

حقوق الطبع والنشر والتصرف بهذا الكتاب
محفوظة للمؤلفة
طبعة أولى 2020

TEL: 00961 79 119718

Email: emanbikai60@hotmail.com

(1)

قطعَت السّـيدةُ الخمسـينيَّة الطّريقَ، بسـترتِها البَيْضـاء الطّويلة وبنطالِها الأسـود ومنديلِها الحريري الصّـغير المعقودِ حـول عنقها والمطـرَّز يدويًّا على خلفيّةٍ بَيْضـاءَ بِوَرْدٍ صـغيرٍ أحمـر وأصـفر، تسـتعمله- إلى جانب الزِّينة- لربط شـعرِها البنيّ الدّاكـن الذي يغطِّي أعلى كتفيها، إنْ هاجَمَتْها حرارةُ شـمسٍ، أو تشـدُّهُ أكثرَ حول عنقِها وترفعُ قسمًا منه إلى أنفها لِدَرْءِ بردٍ مفاجِئ.

وكانَت تضع كِمامَتَها- إحدى أدوات الوقاية التي لا غنى عنهـا أيامَ الجَائحَة- وتغطي عينيها البنّيّتين الخاليتين تمامًا من كُحْـل عيـونٍ أو رموشٍ بنظّارة سـوداءَ قاتمة، بعـد أن أوقفَت سـيارتَها في مرآبٍ في الشّارعِ المقابلِ للمبنى المقصودِ في حَيِّ (الجمَّيْزة)، أحد أقدم المناطق البيروتيَّة التي تشـكّلَتْ حول سور العَاصِـمَة القديم، فضمَّتْ قصـورًا وأبنية أثريَّة وشواهد تعود إلى الحِقَب العثمانيَّة والمملوكيَّة والصّـليبيَّة، تضرَّرَ قسمٌ

كبيرٌ منها بشكل مؤلمٍ بسبب تَفْجير مرفإِ بيروت في الرّابع من آبَ.

وتسمَّرَتْ قدماها أمامَ ذلك المبنى القديم الذي يميلُ «أَثيرُها» إلى نظريةِ كونه والمباني المشابهة- التي يقطُنُ بإحداها في المِنْطَقَة ذاتِها منذ انتهاء الحرب الأهليَّة في التّسعينياتِ- «حداثيَّةً»، وُجِدَتْ في نهايةِ الحِقبة العُثمانيّة الطّويلة؛ إذ اتَّسعَتْ رقعَةُ بيروتَ وتخطَّت الحدود التي عُرِفت بها في القرون الوسطى. وما لبثَتْ أن تطورَتْ هذه الحركة في عهد الانتدابِ الفرنسيّ؛ فشُيِّدَت مبانٍ سكنيَّةٌ ذات طبقات متعددة، نتيجةَ النُّموّ السّكّاني الكبير الذي شهدتْه العَاصِمَة. ولا تخلو هذه الأبنيةُ من طابع جماليٍّ جمَعَ بينَ أساليب الشَّرْق والغَرْبِ بصورةٍ «مُلَبنَنَة»، أقلُّ ما يُقال عنها إنها «أَخَّاذة».

وبدا واضحًا أنَّ جدرانَ المبنى الخارجيَّة قد طُلِيَتْ قبلَ تَفْجير مرفإِ بيروت بحوالي أربع سنواتٍ باللَّون الأَصْفَر الكَناريّ، السَّاطِعِ، الإيجابيّ، النّابض بالحياة، المتناسِق مع خشب الأبواب الدّاخلية والنّوافذ النّاصعة البَياض، ومع «أباجورات» النّوافذِ والأبوابِ الخشبيَّة الخارجيّة الحمراء الكارديناليَّة المُشرِقَة.

وهو مؤلَّفٌ من أربعةِ طوابقَ عاليةِ السّـقوفِ، تُطِل شرفاتُها على الشَّـارعِ الغارقِ في حَضرة أشـجارٍ دائمةِ الخضرةِ وعلى محلاتٍ معروفةٍ منذ عشـراتِ السّـنين؛ ومنها محلٌّ يصـنعُ الحلوياتِ البيروتيَّةَ التّقليديةَ، ومطاعم تُقصَد من قِبَل الذَّواقة من أبناء المدينة والسُّواحِ لتناوُل المأكولات الشّعبية اللُّبنانية، ولم يؤثر انتشـارُ كورونـا على إقبال زبائنهـا عليها؛ فما خفَّ ارتيادُها ولا تراجعَت جودَتُها.

ولو لم تكن واثقةً من أنَّ الذي تدعوه وحدَهُ- منذ ثلاثين سنةً- «بـالأَثير» ينتظرها في الطّابق الرّابع بناءً على موعدٍ أُجِّلَ لأكثرِ من سنةٍ من قِبَلِهما مُداوَرةً نزولًا عند شروط الجَائحَة- ولم تكن قبلَ ذلكَ قد التقَتْهُ أصـلًا لثماني سنواتٍ خلَتْ- لما تجرَّأت على صُعود درجاتِ المدخلِ السَّوداء التي تقودُ إلى بيتِ المِصْعَدِ القديمِ المُستبدَل بابه الأصليّ ببابٍ حديديٍّ على شكلِ شبَك لا يمكنُ حتى للجِنِّ الأزرقِ أن يعرفَ أنه يحوي داخله مِصْعدًا صـغيرًا ملبَّسًا بخشبٍ قديمٍ لامع، والذي كان عليها أن تدخُلَ من أحد بابَيْه الزّجاجيينِ المؤطَّرينِ بالخشبِ، بينمـا تخرج من الآخَـرِ الذي يقابِـل بوابةَ الزّانِ الضّـخمةَ

المفتوحة إحدى نافذتيها الزُّجاجيتين المحجَّرتَيْنِ على قضبان حديديَّة رفيعة بيْضَاء تدل على وجودِ أحدٍ في الدّاخِلِ.

وخطرَ لها- في غمرةِ وجودِها في هذا المكان الموجِع بِصمته وفراغ بيوتِه- أن تقرع الجرسَ مرةً، فإنْ لم يُفتَح البابُ؛ رمَتْ بالصَّحيفة التي كتبَت فيها مقالًا عن آخر كتابٍ أصدرَه «أَثيرُها» قبل سنةٍ، أحصى فيها الأماكن التي كانت تُعرَضُ فيها المَسْرَحيات في الحربِ الأهليّة، والمواد المستخدَمَة في إقامة المسارح؛ وأسماهُ: «المَسْرَح اللّبناني أثناء الحرب الأهليّة»، وهربَت نزولًا على الدّرَجِ، حتى لو اضْطُرَّتْ أن تؤجِّلَ رؤيتَهُ، وأن تقاتِل في طريقِها الأشباحَ التي قد تخرجُ من البيوتِ المهجورةِ في الطّوابقِ الثَّلاثة القابعةِ تحتَ هذا البيتِ.

لكنَّ البابَ فُتِحَ؛ فعدلَتْ عن فكرةِ الهروبِ، ودخلَتْ وقد تحولَت دقَّاتُ قلبِها من دقَّاتِ وَجَلٍ إلى طُمَأْنينةٍ. ولم تستغربْ كيف- بلحظةٍ مكثَّفةِ البهْجة- انتقلَتْ إلى مُتهلِّلةٍ، وكأنّها حَظِيَتْ فجأةً بكلِّ أحلامِها.

ولكنَّها- هي التي لم تخرجْ من بيتِها في بَلْدَتِها السَّاحليّةِ القريبةِ من بيروتَ منذ بداية الجَائِحَة، ولم تقابلْ أحدًا خَوْفَ

انتقالِ العَدْوى إليها- لم تعرفْ كيف تتصرفُ إزاء هذا الموقف؛ فاكتفَتْ بإزاحَةِ كِمَامَتِها القماشيَّةِ إلى ما تحتَ أنفِها، ثم نَزَعَتْها ووضعتْها في جيبِ ردائِها، كي تستطيعَ أن ترُدَّ على ابتسامتِه غير المغطَّاة بمثلِها.

ولكنَّها شبكَتْ راحتَيْها خلفَ ظهرِها خَشْيَةَ أن تسبقَها ذراعاها إلى عناقِ اشْتِياقٍ مُتَّقِد، كما يحدُث دائمًا- منذ عقودٍ- كلَّما التقيا بعد غيابٍ ظنَّ كلاهُما فيه أنَّه خبا أو على وشكِ الخُبُوِّ، فما كانَ!

ومدَّ رأسَهُ إلى ظهرِها يتأمَّل تشابُكَ راحتيْها الموصَدَتَيْنِ ضاحكًا بعد أن همسَ، من شعرِ(سعيد عقل): «وقربُكِ لي معبدٌ لا يُمَسُّ!»، فغَصَّتْ، وأطرَقَتْ، ولم تعلِّقْ، ففتحَ ذراعَه اليُمنى على وسعِها باتِّجاهِ مكتبِه، مُفسِحًا لها الطَّريقَ، مرحِّبًا بها بحفاوَةٍ، مُستعيرًا- كعادَتِه في كلِّ مرةٍ يلقاها مذ التقيا أوَّلَ مَرَّة- عبارتَه من ديوان (رِنْدَلى): «هَلا هَلا، به بهَا، بالجَمَالْ»!

وابتسمَتْ شاكرةً عبارَتَه المنعِشةَ، المُحْيِيَةَ، المُداويةَ، ثم استلَّتِ الصَّحيفةَ من حقيبةِ يدِها وقدَّمَتْها له؛ فتناولَها شاكرًا، ووضعَها إلى جانبِ نسخةٍ منها على طاولته كانَ قد

قرأَها في اليوم الذي نُشِـرَتْ به، واستبقاها ذُخْرًا يُعرَضُ على زُوّاره بتَباهٍ، ولكن لا يُفَرَّط به.

أحسَّتْ بمشاعرَ متضارِبة كانَتْ قد درّبَتْ نفسَها، منذ أكثر من أسـبوعٍ، علـى تهدئتِها والتّركيز على إعـادةِ برمجةِ تلك الحالَةِ الحياتيَّة البهيَّةِ الملهِمَةِ الخلّاقةِ التي انقطعَتْ، لأوَّل مرة، لسنواتٍ عِجافٍ، اقتصـرا فيها على متابعةِ أخبارهما الثّقافيَّة بالحدِّ الأدنى ومن دون أي تعليقٍ.

وبدا مثلها مرتبكًا، رغم أنَّه تجالَدَ، فراحَ يشرحُ لها في مكتبِه الواسـع- باختصـار- عن لوحاتٍ «بورتريه» رسـمَتْها رسّامة لبنانيَّة شـابَّةٌ لكبار المَسْـرَحيين من كُتَّابٍ ومخرجينَ وممثلينَ مشـهورينَ، أكبرُهـا لوحة «مـارون النَّقَّاش»، أوّل مسـرحيٍّ لبنـانيٍّ وعربـيٍّ حفِظَتْ- عن ظهـرِ قلبٍ وبإعجـابٍ لا يقلُّ عن إعجابها بـ«تشـيخوفها» كما اتَّفَقا معًا على تسميَتِه- أولَ خطبَةٍ في التَّمثيلِ رسمَ فيها خارطة الطّريق لكل مَن سيعمل في المَسْـرَح؛ مذ بنى مسـرَحَه قربَ بيتِهِ في (الجمَّيْزة) نفسِها، وأعطى خلال ثمانٍ وثلاثين سـنةً، هي عمره القصير الحافل، ما لم يعطِهِ مُعَمِّرٌ.

ونقلَتْ خطواتِها أفقيًّا تتبعُ خطواتِه خطوةً خطوةً، وتُظْهِرُ دهشتَها لبراعة الرَّسْم، متوقِّفَةً عند لوحات (الأخوين رحباني)، و(فيروز)، و(الصَّبوحة)، و(منير أبو دبس)، و(لطيفة وأنطوان ملتقى)، و(شوشو)، و(روجيه عسّاف)، و(ريمون جبارة)، و(يعقوب الشّدراوي)، و(روميو لحّود)، ولوحات أخرى كثيرة عُلِّقَتْ وقد أُطِّرَتْ حديثًا بأُطُرٍ خشبية بنّيَّةٍ رفيعة يتخللها اللَّونُ الذَّهبي المعتَّقُ.

وما كانَ مُناسبًا- وهو في حضرةِ كاتبة مسرحِ أطفال- أن يذكُرَ الأسماءَ أو يشرحَ جديدًا عمَّنْ تفخَر به ويفخَر مسرحيو لبنانَ ومثقّفوه وفنّانوه، لولا أن استعادَ تدريجيًّا بعضَ مرحِه، فطلبَ إعطاءَه منديلَها الحريريَّ الذي تأمّلَ تطريزَه بإعجابٍ قبل أن يسألَها أن تغمضَ عينيْها ليربطَه فوقَهما، ثم أمسكَ بكفِّها هامسًا:

- سيري خطوةً نحو اليمين، خطوتين، ثلاثَ خطوات؛ ولا تخافي ما دمْتُ مُرشِدَكِ. اتَّجهي الآن نحو اليسار، سبعَ خطواتٍ بالضَّبْط. هُوبْ!

وفكَّ المنديلَ ورماهُ على أقربِ كرسيٍّ، ثم طلبَ إليها أن تفتح عينيْها وتنظُر إلى الجدار؛ فشهقَتْ:

– روزْ غريِّبْ؟!

قالَ مبتسمًا ابتسامةً متباهِيَة:

– طلبتُ من الرَّسامةِ أن تنجزَها قبل موعدنا، وها هي معلَّقةٌ على الجـدار كأوَّل «بورتريه» لأُمِّ مسـرح الأَطْفـال اللّبناني، أستاذتك الرّوحية التي سرْتِ على خُطاها ثم تخطَّيْتِها؛ على أملِ أن تُعَلَّق صـوَرُ مُبدِعي هذا المَسْـرَح المظلـوم في بلادِنا، مرورًا بالمبدعة «الأَعْلَى»، ووصولًا إلى مُبْدِعي الجيلِ الجديد!

ودقَّ قلبُها بفرح، ولم تسـتطع أن تقيِّمَ بالكلماتِ مفاجأتَه المُحِبَّةَ؛ فأغضَتْ هامسةً، حابسَةً عَبرَةً خَفيَّةً:

– لا أعرفُ كيفَ أشكرُكَ!

فهمس في أذنها:

– بل عليّ أنا أن أشكرَكِ على ما كتبتِ عن كتابي ونشرتِه.

– كتبتُ؛ لأنني أحببتُ جدًّا الكتابَ!

– الكتابَ فقط؟

ابتسمَتْ عيناها ممازِحَةً:

– طبعًا، لا!

وردَّ على الممازَحَةِ بمثلِها:

– بَشَرَفي، بالأوَّلْ، وقعَ قلبي بينَ رجليَّ خوفًا، وقالَ: ...

وانتظرَها أن تُكمِلَ؛ فقالَت ضاحكةً:

– قال: اَخْ!

فضحكَ مصـفِّقًا، وأتبعَ سؤالَهُ بسؤالٍ جديدٍ عادَ بهما إلى رحلةِ تونس:

– وركبتايَ؟

أجابَتْ بسرعةٍ:

– اصطكَّتَا!

سألَها:

– وقالتا؟

أجابَتْ كتلميذٍ مجتهدٍ:

– صَكْ صَكْ صَكْ!

ثم ضحكَ:

– يا لَخَجلي!

ودعاها من جديد إلى حائطٍ آخر في مكتبِهِ الذي نَوَّرَته شمسُ تشـرينَ الدَّاخلةُ بدلالٍ من خلالِ دَرْفـاتِ النَّوافذِ الزّجاجية الضّـيِّقة الطّويلـةِ المؤطَّـرةِ بخشَـبٍ أبيضَ، والمفتوحـة على

مصــراعيها، ثم رافقَها وهي تتأمل لوحاتِ بقية الشَّخصياتِ، مضــيفًا تعليقاتِه الذَّاتيةَ المرحة، ناظرًا بطرفِ عينيهِ إلى شفتيها اللَّتين اتَّسعَت ابتساماتها، وتحوَّلَ بعضُها إلى ضحكاتٍ تذكرَتْ أنها لم تحظَ- ولو بواحدةٍ منها- مُذْ لم يلتقيا.

ومع ذلك، ظلَّتْ تحسُّ إحســاسَ الضَّيفِ الذي يزورُ مكانًا لأولِ مــرةٍ، رغــم أنه قد حظيَ بمُضــيفٍ وَدودٍ ولطيــفٍ وأنيقٍ و«أثيرٍ» مثله، يقومُ بشــغفٍ قلَّ نظيرُه بحراســة الذّاكرة الفنية الجمعيّة لهذا البلد الصّغير- الكبير، رغم أنف كل مَن يحاول تقويضَها.

ومحاولةً منه إلى تخفيفِ شــعُورِ الضَّيفِ والمضيفِ، دعاها إلى إكمــالِ الجولَةِ في البيــتِ الكبيرِ الذي تحــوّلَ- كما كل شيءٍ تلمُسه أناملُه- من بيتٍ مهجورٍ في بنايةٍ منسيَّةٍ إلى مكانٍ ينبِضُ بالحياةِ بتناقضاتها.

وكان في البيــتِ غُــرَفٌ مُغْلَقَة النَّوافذِ كأنهــا لم تفتَحْ مذِ انتقلَ «بيت المَسْرَح اللُّبناني» إلى هذا المبنى قبل أربعِ سنواتٍ، وقتَ أصــبحَ هو رئيسَهُ، كونه- كما شرحَ محيلًا الاقتباسَ إلى «مــارون النّقّاش»- يُشَــكِّلُ الثُّلُثَ الثَّالِثَ في رونَقِ المَسْــرَح،

وأوّلهُ: حُسْــنُ التّأليفِ، وثانيه: براعَة المشّخِّصــين، والثّالثُ والأخير: المحل اللّائق والطَّواقم والكَواسِم الملائمة.

وأطلقَ ضحكةً من ضحكاتِه التي نزَعَتْ نفسُها إليها:

– شايفةْ شو «زِنْخَة» هذه الـ (الكواسِم والطَّواقِم)؟

وضحكَتْ:

– «زِنْخَة»؟ بالعكْس، أنا أراها «مَهْضومَة»!

– لا تمزحي عندما يتعلق الأمر بمصـيري! قَصْـدي، يعني «ما بْيِسْـوا مطرحْها (أدوات المَسْرَح ولوازمه وملابسه)، يللي هيي أقلّ زَناخَة»؟

ضحكَتْ:

– آه، فهمــتُ؛ أنــتَ تغــارُ لأنه ذكــرَ المؤلِّفَ والمُشَــخِّصَ باسميهما المتعارَفْ عليهما، بينما ذكركَ باسْم...

قاطَعَها بعصبيَّة:

– «أبو الكَواسِم والطَّواقِم»!

ضحكَتْ حتى نزلَتْ دموعُها، فعبسَ:

– اضــحكي، اضــحكي، لو ذكرَكِ باسْــمِ «أم الكواسِــم والطَّواقِم»، لأقَمْتِ مأتمًا وعويلًا.

ثم سارَ، فلحِقَتْ به وقد تخففا قليلًا من شعور ارتباكِ الموعدِ الذي شكَّلَ لهما حَدَثًا جديرًا بالاهتمام، وهو يعرّفها إلى بقيةِ الغُـرَف التـي غُطّيَتْ جدرانُهـا كلُّها بمكتباتٍ خشـبيةٍ قديمةٍ مُلِئَت كتبًا من الأرضِ حتى السّقفِ، ووسطَ كل غرفة طاولةٌ لا تشـبهُ طاولاتِ الغُرَفِ الأُخرى شـكلًا أو حجمًا، ولكنَّها كلُّهـا قد جُلِّلَـتْ بغطاءٍ زيتـيِّ اللّونِ، أو رماديّ، بدا واضـحًا أنها فرِشَـتْ حديثًا، رغم ظهورِ تلك الغـرفِ بمظهرِ المهجورةِ، المكتومـةِ، المُملَّةِ، والمكدَّسَـة كراسـيها في زواياهـا وكأنها لم تُستخدمْ مرةً، على الرّغم من أنه أصرَّ على تسمية غرفةٍ بغرفةِ اجتماعِ المخرجـين، وثانية بغرفة اللِّجان الفنِّيـة، وثالثة بغرفةِ السِّيناريو، ورابعة، وخامسة...

ثم قادَها بسـرعةٍ إلى غرفةِ المحاضـراتِ المغلَقَة شـبابيكها أيضًـا، حيث صُفَّ أكثر من مئة كرسـيّ جلديٍّ أحمر تمتلئ كلُّها في المناسـباتِ الثَّقافيَّة، وتقابلها مِنَصَّـةٌ خشبيةٌ يمكن أن تُمَثَّلَ عليها مسرحيةٌ صغيرةٌ وطاولةٌ وكرسيانِ.

وقبل أن ينتقلَ إلى وصـفِ مكتبة القاعةِ، انخفض صوتُهُ، وطغى عليه نغمُ مرارةٍ:

– لطالما تمنيتُ أن تكوني، ولو لمرة، بين الحضورِ!

ولما لم تجبْ إلا بربعِ ابتسامةٍ مريرةٍ، أشارَ مغيِّرًا الموضوعَ بسرعةٍ بسّبابته إلى خزائنِ الكتبِ:

– تضم هذه المكتبةُ، كما ترين أيتها «الأَغْلَى»، معظمَ أمَّهاتِ كتبِ المَسْرَح الأجنبيةِ والعربيَّةِ والمُعرَّبَة. ونحن نفسح هنا المجالَ للدَّارسين الأكاديميين لتوثيقِ بحوثِهم، ونقدم لهم القهوة والشَّاي أيضًا!

وعادَ فأمسَكَ بكفِّها وقادَها إلى الشُّرفةِ المطلةِ على الشَّارعِ، قائلًا إنه يعشق قطعة الرّخام هذه الصّغيرة العمق التي لا يزيد طولها عن متر وعشرين سنتيمترًا، والمستندة من تحْتُ إلى أحجار منحوتة يدويًّا، لا تقلُّ جمالًا عن الدّرابزين الكارديناليّ المصنوع يدويًّا؛ والمسمّاة(Balcon)، بينما يُصِرُّ على تسميتها (شُرفة)، أُسْوةً بالـ (Veranda) المربعة القائمة على أعمدة تكاد مساحتُها تساوي نصفَ مساحة البيوت البيروتيَّة التي تستقبلُ ساكنيها وزوّارَهم كما تستقبِل الشّمسَ؛ لتسعة أشهر أو عشرة في السّنَة؛ مُشيرًا إلى الشّيء الوحيدِ الذي أسعَدَه خلال غيابِها، وهو الموافقة على اقتراحِه

إقامة «بيتِ المَسْرَح» هذا في مِنْطَقَة سكنِه بحيث يتنقَّل بينهما سـيرًا على قدميْه، مُتَرَيِّضًـا، مُتنفسًـا- صباحَ مسـاء- هواءَ بَيْروتَ، حبّه الأكبر، ومسـقط رأسِه وأجداده، مكرِّسًا نظريتَهُ القائلـة أنْ لا بديلَ عنها كمركـزٍ للفنِّ والعلم والثّقافة رغم ما خُطِّـطَ لها من أذى وما يُخَطَّـط، نَجا منها مَن نجا وما نجا، أو لم ينجُ.

وعادَتْ لتُكْمِل معه جولةً سـريعةً جدًّا، إحداها على غرفةٍ فوضـوية مليئة بـالأوراقِ والكتب المبعثرةِ، وجهـاز كومبيوتر قـديم، إلى جانـبِ أكـوابِ شـايٍ فارغة، قـال إنهـا غرفة الـ (scénariste)، وهو- كما وصفَه ضاحكًا- بـ«عبقريّ تحويل النّصـوص»، الذي يدَّعي أن تغيير مـكان كوبٍ ما، أو كتاب مفتوحٍ ما، أو ورقةٍ عليها جملة مهمّةٌ قد تُستخدَم وقد لا، يقف حائلًا دونَ وصول جُنِّيِّهِ من وادي عبقر (هَبيد بن الصَّلادم).

ضحكَتْ:

- ولكن المذكورَ هو جُنّي شاعريْنِ جاهليَيْنِ...

قال:

- هو يقول إنهما كانا يستعيرانه منه؛ ولكنه له.

وشدَّ يدَها بعيدًا:

- على كل حال، هو يقوم بمهمةٍ خارجَ المكانِ اليوم، ولكنني سأعرفكِ به قريبًا؛ فقد تستوحينَ منه شخصيّةً تناسب بطولةَ مسرحيَّة للأطفال.

أما الغرفةُ الأخيرةُ، فكانت أكثر ترتيبًا ونظافةً، وهي لسكرتيرة المكتبِ التي لا تتواجدُ إلا مرةً في نهايةِ كلِّ أسبوعٍ، إذ تنجز أعمالها من بيتها «on line».

وهمسَ:

- متذرّعَةً بحجَّةِ الكُسالى: «الكورونا»!

وقبل انتهاءِ الجولةِ، أشارَ إلى سقيفتين كبيرتينِ متقابلتينِ في المدخلِ قائلًا إنهم- حفاظًا على الكتبِ الموجودةِ فيهما- يُبقون بابَيْهما مفتوحَيْن خوفًا من أن تتآكلَ أوراقُها بسببِ الرُّطوبة ريثما تصل المكتبات الجديدة من عند النّجار، «فننزلها، وننشرها، ونكويها» ونصنّفها.

ولم يُبْدِ انزعاجَه من أيةِ زاويةٍ من زوايا البيْتِ، رغم أنه مرَّ بسرعةٍ من قربِ المطبخِ الصّغير الذي لا تتجاوز مساحتُه مترين مربَّعين، قائلًا إنَّه «فقط لإعدادِ القهوةِ والشَّايِ؛

لأن مطبخَ البيتِ الأصـلي قد حُوِّلَ إلى غرفـةِ زعيمِ (هَبِيد) «المهضوم القابِضْ حاله».

وبعد تلك الجولـةِ التي تاقتْ بعدَها إلى العودةِ إلى ضَـوْء مكتبِـه، عادا، فجلسَ وراء المكتـبِ، وجلسَـتْ قبالتَه على كرسيٍّ جلديٍّ.

ولما كانَت قد قررَتْ سَـلَفًا منذ يومين، مذ ثبَّتا موعدَ اليوم، ألا تتكلـمَ عن أي شـيءٍ يعنيها؛ بـل أن تُصـغي إليه، فقد اشـتاقَتْ إلى سماعِ صوتِه ومراقبةِ عينيه عن كَثَبٍ؛ كفَّ عن المزاحِ ولبسَ ثوب الرّصـانَة، فمرَّرَ بضعَ جُمَلٍ عن الاقتصاد، وبضـعَ جُمَلٍ عـن السّياسـةِ المتدهورةِ التي لا حـلَّ لها إلا اعتماد «المواطَنة»، بعيدًا عن التّصـنيفات الإثنيَّة، أو العِرْقيَّة، أو الدّينيـة، أو القوميَّـة، أو الحزبية وغيرها مما اعتقدَ يومًا- أيامَ الشّباب- بأنها قد تكون خشبة الخلاص؛ فلم تكن!

وتحدَّثَ بعصبيَّةٍ عن فَتْكِ سلاحِ الطّائفيّة بالبلَدِ ومَن تبقّى من أهلِ البلَدِ مِن قِبَلِ مَن يُسَمّونَ أنفسَهم سياسيين، تؤازرُهم عصاباتُ النّافذين والفاسقين.

وتنهَّدَ، ثم انتقلَ- بصـوت خفيضٍ، رشيقٍ، هادئ، وجُمَلٍ

متأنِّية، مُنتَقاةٍ- لشـرحِ ما مرَّ به من مشـاكلَ صـحِّيَّة خلال «فـترة غيابها»، تتعلّقُ بمعاناته المُزمنَة النّاتجة، مذ كانَ في مرحلة الطّفولـة، عن كـثرةِ صُـفَيْحاته الدّموية، والتي سـببُها طَفْرَة جينيَّة يصرُّ- كلما ذكرَها- على وصفها «بالملعونة»، والتي طالما أقلقَتْها لعقودٍ عوارضُـها، وتحـوّلَ قلقُها إلى خوفٍ لم تُظهرْه له مذ تجاوزَ السّتينَ قبل أكثر من عقدٍ!

ولم يُـردْ أن يقلِّـلَ من جمال هذا اللّقـاء، فادَّعَى أنه الآنَ علـى ما يُرام، محاولاً أن يخفّفَ من شـأنِ ما مرَّ به، واصِـفًا إيّاه، بمرَحٍ مُصـطَنَع، بأنه «من حواضِـر البيتِ التي اقتصـرَتْ على بعضِ الجُلَيطاتِ، ما اسـتدعَى إقامَتي تحت إشراف طبّيٍّ مرارًا، ولكنها لم تُسـببْ لي- حتـى الآن- أذًى فادحًا يُذكَرُ فيه اسمي مسبوقًا بكلمة المرحوم؛ فحبَّذْتُ إخفاءَهُ عنكِ».

ورغـمَ أنها اعتبرتْ «تحبيذَهُ» هذا تقليـلًا من منزلتِها التي يُفْتَرَض أن تتبوأَها في الظّـروفِ الطَّارئة، لم تعلِّقْ؛ بل تابَعَت الإصـغاءَ وعلى شـفتيها ابتسـامةٌ لم تنقُص ولم تَـزِدْ، فأتبعَ الوصفَ بضحكةٍ مختصَـرَة، مصطَنَعَة، حاولَ من خلالها أن يشَتِّتَ نفسه ومحاوِرَتَه عن كُنْهِ مرضِهِ البارِدِ، بحثًا عن حقيقة

الإحساس الدّافئة التي يدعوها بعضُهم بالوَهْم، وليستْ إلا اليقينَ، سادَ بعدَها صمتٌ ثقيلٌ زادَ خوفَها؛ فتألَمَتْ لألمِه، وتمنَّتْ لو تعانقُ كفّاها كفّيْه تضامُنًا؛ لكنَّها تذكَّرَت «لاءات» كورونا اللَّعينة!

ولفتَتْها كلمةُ «غياب»، ولفَتَها أكثر قولُه إنَّ ذلك الغِياب الذي دام سنواتٍ طويلةً كان «قرارًا قاسيًا».

فاتَّسعَت عيناها، وسكنَتْهما الدَّهشةُ، ولكنَّها لم تعلِّقْ! وشرحَ أنَّه «اتّخذَ» ذلك القرارَ «عن سابقِ إصرارٍ وتصميم» عندما تأكد أن ظروفَها الصَّعبةَ كانتْ تزدادُ صعوبةً وتعقيدًا كلَّما طعنَت عمَّتُها التي كرّسَت نفسَها مسؤولة وحيدةً عنها بالسِّنِّ، وخاصة بعد اجتياح «أَلْزَهَايْمَرْ» خلايا مخِّها، وحاجتها إلى مراقبة دائمة رأت أن لا أحدَ يستطيعُ القيام بها سواها، رغم وجود أمّها وشقيقِها في البيتِ، ما جعلَها لا تغادرُ منزلها إلا إلى عملِها لتعودَ بسرعةٍ إليه، حتى إنه لم يحظَ بوقتٍ لشربِ كوب شايٍ معها في مكانٍ ما لسنواتٍ!

وتضرَّجَت؛ فأرادَ أن يُزكّيَ أسبابَ اتّخاذ قراره- لولا خوفه من أن تعتبرَ صِدْقَ شرحِهِ «وقاحةً»- بأنها صارَتْ،

بوجـود عائلتِها التـي كلما كبُرَتْ، تضـاءلَتْ مسـاحَتُها الشَّخصـيّة؛ كما يقول «تشيخوفها»: «أشـبهَ بأحد زوارقِ قَطْـرِ البواخـرِ، جميلةٌ من بعيدٍ، ولكنَّهـا- من قريب- تجرُّ خلْفَهـا من أربعِ إلى خمسِ بواخرَ لا تسـتطيع التّخلي عن أحدها!»؛ فتراجعَ في اللَّحظة الأخيرةِ عن تزكِيَتِه، خشـيةَ انجـرارِه إلى مقارنةٍ قد تكشـف له- وهو ما لم يفكرْ به قبل هـذه اللَّحظة- أنـه أيضًـا زورقُ قَطْرِ بواخِـرَ، لا يملِكُ من «الحريَّة» أكثرَ مما تملكه منها.

وحاولَـت ألا تنفعلَ قبلَ أن يسـتوفيَ كلامَـه؛ فعادَ وربطَ ظروفَهـا التي كررَ وصـفَها بكلمَتـي: «الصَّـعْبة»، و«المعقَّدة» بِسَـنتيٍّ سـفرِها وفقَ عقدِ عملٍ- بُلِّغَ به ولم يُسْتَشَرْ- وذلكَ بعد نَيْلِها شهادةَ الدّكتوراه بعامٍ واحد، حصدَتْ فيهما النَّجاحَ الأكاديميَّ وشهرةَ الإبداعِ؛ إذ حققَّتْ حلمَ الكتابةِ لأوَّلِ مرَّة، وهو ما لم تحقِّقْهُ خلالَ سنواتٍ في وطنِها الأُمّ.

بيد أنه اسـتدركَ أنَّ «قرارَه القاسـيَ والمزعِـجَ والموجِعَ» لا علاقـةَ له بتركِها إياه وقتَ سـافرَتْ؛ بل ذكّرَهَـا أنه كانَ أولَ الموجوديـنَ المحتفلـينَ بعرضِ مسـرحيتِها في تونـس، وأوّلَ

المرحِّبـينَ بعودتِها بعد انتهاءِ عملِهـا. وذكَّرَها كيفَ عانقَها في اليومِ التّالي لعودتِها هامسًا بشغفٍ: «ما زلْتُ أحبكِ»!

واستمرَّتْ قصتُهما التي كانَتْ تعتقدُ- إلى ما قبلَ دقائقَ- أنها الأحلى في العالَمِ لسنواتٍ أخرى، إلى أن اكتشفَت للتَّوِّ أنها كانَتْ- من وجهةِ نظرِه- قصـةً محاطـةً بظروفٍ معقَّدة؛ فاختفى بقرارٍ أُحاديٍّ لم تعرفْ عنه قبلَ الآن شـيئًا، ولا تجدُ له وصفًا أصدقَ من وصفِ «جائِر»!

فكَّتْ تشـابُكَ أصابعِ راحتيها، وأسندَتْ مَنْكِبَيْها إلى ظهرِ كرسـيِّها، محاولةً أن تتنفسَ بعمقٍ، ما أضـفى عليها أثَرًا من شَجَنٍ رقيقٍ أبْكَم.

ورنَّمَ- في موقـفٍ مُرتَجَلٍ- بصـوتٍ مُنْهَـكٍ أغنيةَ (فيروز)، معتذرًا عن عدم وجودِ عُودِه:

«زعَلي طَوَّلْ أنا ويَّاكْ
وسنينْ بقيتْ
جَرِّبْ فيهُنْ أنا إنساكْ
وما قدرتْ نسيتْ»!

ولم تغفِرْ له إقرارَه بفشـلِ نتيجةِ «محاولة تجربةِ النِّسـيان»،

كما لم تغفِرْ له ظُلمَ اختصارِ سنواتِ قرارِه بتعليقِهِ بعدَ ترنيمتِه الشَّجيَّة:

- على أنَّ صعوبةَ قصّتِنا وتعقيدَها، لا يُقارَنانِ، أيتُها «الأَغْلَى»، بصعوبة السّنواتِ الرَّاكدَةِ، المنقوصةِ، الباهتةِ، المبهَمَةِ، الضّجرَةِ، القلِقَةِ، القارسةِ، والتي فقدْتُ فيها- مِن دونِ وجودِكِ- سَلامي، بالمعنى الدّقيق للكلمة.

ولم تستطعْ أن تفهمَ الجملةَ الثَّانية أيضًا، والتي أردفَها بالجملةِ السّابقةِ:

- لم أرَكِ، لكنكِ كنتِ داخلي، في كلِّ لحظةٍ!

وحاولَ بارتباكٍ أن يشرحَ:

- عندما قارنْتُ بينكِ وبينَ البقية، عرفْتُ أنك لم تكتبي- مثلَهم- عني؛ بل عن أعمالي، لم تصفقي- مثلَهم- لي؛ بل نقدْتِ ما يحتاج إلى نقدٍ، وصوَّبْتِ ما يحتاج إلى تصويب، لم تقرئي- مثلَهم- عناوين ما أنجزْتُهُ؛ بل غصْتِ في التّفاصيلِ، لم تتذمّري- مثلَهم- إذا ما سألتُكِ إن كانَ منطقي في عَمَلي سَويًّا، وتوجُّهي واضحًا، ومستوى الفنِّ فيه عاليًا؛ بل كنتِ تغطسينَ في عوالمِهِ لتؤكدي لي أنكِ جديرةٌ بالوسامِ الذي

أخُصُّــكِ به في كلِّ مــرة قلْتُ لكِ فيها: «أحببــتُ إطلاعَكِ وحدكِ عليه».

وابتسمَ بحبٍّ غامرٍ، محاولًا إضحاكَها:

- ربما لأنَّ ما يجمعُنا أنَّكِ- على رأي أســتاذِنا «النّقّاش»- الثّلثَ الأول وأنا الثَّالث؟

ولما فشــل في إيجــادِ أي تعبيرٍ انتظرَ أن يطفو على صــفْحَة عينيْهــا المبللتين أو شــفتيْها، وجــدَ من الأفضــلِ أن يتوقفَ عن حوار أُحاديٍّ، فاســتعانَ- من جديد- بخلاصَــةِ كلماتِ (جوزف حرب) ذاتها، مُرَنِّمًا بصوتٍ أكثر إنهاكًا، لحنَ (زياد):

«كإنَّكْ حبيبي،
إنْتَ وعينَيْكْ،
هَلَّقْ فلَّيْتْ»!

ثم لاذَ بالصَّــمْت مُرتَقِبًا؛ فأخفضَــتْ نظراتِها من دونِ أن تستطيعَ استحضــارَ ابتسامةٍ مُجامِلَةٍ؛ أو تسأله كيف يستطيع في هــذه اللَّحظات الموجِعَة أن يجرؤ على غناء أغنيةٍ، حتى لو كانــتْ «اعتذاريَّــة» وحزينةً ومعبّرَةً خيرَ تعبــيرٍ عما يحسُّ به. وشــكرَتِ الله أن أمدَّها ببرودةِ أعصابٍ أطبقَتْ معها شفتيْها

فلم تنبِسا بحرفٍ تعليقًا، وعينيها فلم تتحركا في محجريهما.

بيـدَ أنهـا اسـتغربَتْ أن تحَوَّلَ، فجـأةً، من مُعتـذرٍ دَميثٍ تلميحـيٍّ، إلى مُتَّهِمٍ نَزِقٍ توضـيحيٍّ، بل لم تسـتطعْ، وربما لم يستطع هو أيضًا تحديدَ موقعه بدقَّة:

- وأنـتِ لم تحاولي الاتّصـالَ أو السُّـؤالَ عنـي، أو حتى حضـور أي نشـاطٍ أقومُ به، رغمَ أن الدَّعواتِ كانَت تصلُكِ كما تصلُ للجميع.

ولم تجِبْ إلا بكلمةٍ واحدةٍ، وبصوتٍ خفيضٍ، مكتومٍ، مَكْلومٍ:

- صحيح!

ولئلا تدمَعَ كما يحدُثُ عادةً كلَّما اسـتيقظَتْ لتجدَ أنه لم يكن موجودًا إلا في حلمٍ ليليٍّ عابرٍ، وقفَتْ، فوقفَ، وأخرجَتْ من جيبِها كِمَامَتها ولبسَـتْها على عَجَلٍ، ثم سارَت بخطواتٍ هاربةٍ نحو البابِ؛ فرافقَها.

ولمـا حاولَت فتـحَ البابِ، أبعدَ يدَها عن المَسْـكةِ، ثم أزال الكِمَامَة عن وجهِها ووضـعَها في جيبِهِ، وشـدَّها إلى صـدرِه بشغفٍ:

- ما زلْتِ تحبينني؟!

(2)

وقبل أن تستكملَ استغراقَها في عذوبةِ تبادُلِ تلك القُبلةِ التي شاركَت فيها بكلِّ حواسِّها لدقيقتين وبضعِ ثوانٍ، انتبهَتْ إلى أنها تقبِّلُ فارضَ العُقُوباتِ عليها؛ ففتحَت عينيْها بقلَقٍ ضبابيٍّ حالمٍ سُرعانَ ما تحوَّلَ إلى رفضٍ، فاستنكارٍ دفعاها إلى اسْتلالِ كِمَامتِها من جيبِهِ على غفلةٍ منه، ثم فتحَتْ البابَ وانسحَبَتْ.

ولم تنتبهْ إلى أنها كانَت ترتجفُ وهي تنزل الدّرجَ الكثيرَ المنعَطفاتِ بسرعةٍ غير آبهةٍ للأشباحِ التي تتحركُ صعودًا ونزولًا بين الطّوابقِ وقد تقطعُ عليها الطّريقَ في حاجزٍ طيّارٍ كما كانَ يحدُث أيام الحروب المتنقلةِ في هذي البلاد.

لكنَّها وصلَتْ بسلام إلى المدخلِ، ثم غادرَتْه لتقطعَ الشّارعَ إلى حيث ركنَتْ سيارَتها، ملتجئةً إلى علبتِها المعدنيَّةِ تلكَ ريثما تنسلُّ منها قُشْعريرةُ انفعالِها فتستطيع أن تقودَ سيارَتها إلى البيْتِ، وطبعًا من غيرِ أن تستمتعَ بأغنيةِ:

التي رافقَتْها طوالَ رحلـةِ المجيء؛ إذ فوجئَتْ أنها- بمجردِ أن سـمعَت صـوتَ (لويس أرمسترونغ)- شـعرَت بالمَغْص؛ فأغلقَتْ فمَهُ واضـعةً كمَامَتها على مفتاحَي المسجّل، مفضِّلَةً أن تحاولَ إسـكاتَ كلِّ ما يمكنُ أن يؤثّر على محاولاتِ قيامِها المسـتميتةِ بعمليةِ غسـيلِ دماغٍ يبـدو أن نتائجَها المبنيةَ على نظريةِ أن السَّـعادةَ ترفرفُ هنا وهناكَ وهنالكَ باءَتْ بالفشلِ؛ إذ ظهرَ زيفُها في أبهى حلَلِه اليومَ.

وحاولَتْ- وهي تسـندُ رأسَها إلى مسـندِ كرسيّ القيادةِ- مراجعةَ حسـاباتِها بشأن الفرحِ الذي اسـتيقظَ لحوالَي سنةٍ، مذ أرسـلَ لها كتابَهُ الجديدَ الذي قرأته مـرّاتٍ، وكتبَتْ عنه بمحبـة وإعجابٍ، هديةً موقَّعَةً بعبـارةِ «إلى الأَغْلَى»، وهو لقبٌ يسـتحقُّ، منـذ الآنَ، التّوقُّفَ عنـدَه ومناقشَـتَه وعدم قبولِه كمُسَـلَّمةٍ بـلا برهانٍ؛ فلا يؤخَـذ على محْمَلِ الفـرَحِ الذي أعادَ إليها، منذ سنةٍ، الأحاسيسَ القديمةَ التي عرَفَتْها معه مذ عرَفَتـه، ما تركَ فيهـا زاويةً من زوايا أمكنتِـه البيروتيَّةِ القديمةِ التي شـهدَتْ مراحلَ ولادتِه ومراهقتِه وشـبابِه كما شهدَتِ

الحربَ الأهليَّةَ فتحولَـت إلى خطوطِ تماسٍّ مُدمَّرة، إلا وعرَّفَها بها؛ فكانَ يعطيها ذراعَهُ تتكئُ عليها، فيسـيرانِ في الزّواريبِ بتأنٍّ وتمهُّلٍ ممزوجينِ بوجَلٍ.

وكانَ يهمِسُ بصـوتٍ خفيضٍ شـارحًا تفاصـيلَ المكانِ المهجورِ، شأنه شـأن مُرْشِدٍ مُتْحَفٍ يضمُّ مجموعاتٍ قيّمةً من تُحَفِ الذِّكرياتِ التي لا تُعرَضُ إلا لمن يوثَقُ بقدرته على تقديرِ قيمتِها، مُصـرًّا أن تتذوقَ من عند كلِّ ما صمَدَ من محلّاتٍ، كدكانِ (مُنْذِر)، بائعِ العصيرِ المتهالِكة جدرانِ دكّانه، «أطيبَ عصـيرِ برتقالٍ» عصـرَهُ لهما بعصّـارةٍ معدنيَّةٍ ثقيلةٍ تحتاجُ إلى جهدِ مُصـارِعَيْنِ في كلِّ مرةٍ كان يكبسُ فيها نصفَ البرتقالةِ المُختارةَ من بين الحباتِ المتكوِّمة أرضًـا في زاويةٍ فوق شرشفٍ قطنيٍّ ناصع البياضِ.

وأن تتذوقَ من عندِ بائعِ الأرز بالحليبِ في الشّـارعِ الضّيّقِ المـوازي ما لن تتذوقَ نكهةً كنكهتِه، ومـن عندِ بائعِ الفلافلِ الذي يقول عنه إنَّه في قمةِ أدائه المهني؛ وإلا ما نافسَ مطعمُهُ الصّـغيرُ أرقـى مطاعمَ العالم، وجـذبَ أطفالَ حـيِّ ما قبلَ الحربِ، تستحضـرهم عينـاهُ اللَّامعتان واحـدًا واحدًا، وهو

معهــم، من متحــفِ ذكرياتِه الثّمــينِ، يقطعونَ الشّــارعَ وقد خبأوا مصــروفَهم الأســبوعيَّ لتناولِ أطيبِ سندويش فلافل ستتذوقُها الآنَ.

(3)

وأخذَها من أفكارِها طَرْقُ أصابعِ حارسِ الموقفِ على زجاجِ السَّيّارةِ، ففتحَتْها، فسألَها إن كانَتْ بحاجةٍ إلى أيَّة مساعدة، أو إن كانَتْ تعاني دُوارًا يمنعُها من القيادةِ؛ فهزَّتْ رأسَها نافيةً فشاكرةً، فمُغلِقَةً هاتفَها، ثم واضعةً إياه في حقيبةِ يدِها التي رمَتْها على الكرسيِّ الخلفيِّ، ثم أخرجَتِ السّيارةَ إلى الطّريقِ من الأشرفيَّةِ باتّجاهِ شارعِ الحمراءِ.

ولم تشأْ أن تقطعَ سلسلةَ أفكارِها، فتساءلَتْ:

- «هل كانَ كلُّ ما تذوَّقَتْهُ بالفعلِ هو الأطيبُ؟»

وهل كانَت ستجيبُ، وقتَها، بغيرِ ذلكَ الحماسِ الحقيقيِّ الذي يجعلُ كلَّ ما يمرُّ تحتَ ألَقِ تجاربِنا الحديثةِ هو الأفضلُ؟

كانَت- رغمَ معرفتِها بهِ لسنواتٍ لم تصلْ إلى بدايةِ الخمسِ- في مرحلةِ اكتشافِ معالمِ شخصيتِهِ التي يجمعُ فيها بين الذَّكاءِ المرِحِ النّاقدِ المبني على ثقافةٍ مستمَدَّةٍ لا من تبوُّئِهِ فقط المراكزَ التي يسعى إليها بجهدٍ بعد نيلِهِ درجةَ الدّكتوراه

في هندسة الدّيكور، بل من ثقافةٍ كتبيّةٍ لافتةٍ ترجعُ إلى أيام الطّفولة، إذ لا تسليةَ للأطفالِ الأذكياءِ والمراهقينَ، في ذلكَ الزَّمانِ، إلا شراء الكتبِ والرِّواياتِ والبحث في صفحاتِها عن أسرارِ الحياةِ.

وكانَ- إن لم تجبْ بما أجابَتْه فيما يتعلقُ بتجربتِه الطّفوليّةِ التَّذوّقيةِ تلك- سيستنكرُ جوابَها بالتَّأكيد، لا لأنه ديكتاتوريّ النّزعةِ؛ بل لأنَّ شخصًا رومانسيًّا لطيفًا مسكونًا بالمكانِ والزَّمانِ مثله، لا يمكن أن يُناقَش في حيثيّاتِ ما يتعلَّقُ بأزمنَتِه وأمكنَتِه وأشخاصِه، فهو نَزِقٌ في غير ما مظهرٍ خارجيٍّ واضح، متطَرِّفٌ في غير ما عنْفٍ، لا يقبلُ رأيَ الآخر، كائنًا مَن كانَ، ما دامَ هذا الآخَرُ لم يعشْ تفاصيلَ ما عاشَه؛ وكانَ هذا سرٌّ من أسرارِ إعجابِها به، هذا الإعجاب الذي تحوّلَ- من جانبِها على الأقلِّ- إلى قصَّةٍ نابضةٍ أساسُها بُنيَ لسنواتٍ خمسٍ موقِفًا موقِفًا، فما كانَتِ القصةُ، في صيغتِها العاطفيةِ الجديدةِ، لتنسحقَ تحتَ عجَلاتِ ما يُسمَّى بقصصِ الحبِّ التّقليديَّة؛ بل زادَتِ العاطفةُ المتأنيَّةُ الخطواتِ على الإعجابِ تفاصيلَ مدهشةً، سحريَّةً، منتظَرَةً وغيرَ مُنتَظَرةٍ، بعد سنواتٍ

من الصَّـداقةِ الصِّـرفةِ التي وجدَتْ معها فيه إنسانًا لا يمكنُ اسـتبدالُهُ الآنَ أو بعد عشراتِ السّنين؛ سَخِيَّ إيجادِ الوقتِ حتى لو كانَ قصيرًا، سخِيَّ التّجربةِ، وسخيَّ النّصيحةِ يقدمُها من غـيرِ أنْ يكونَ مُغْرَمًـا بالحديثِ الطَّويـلِ أو الجدَلِ، ممهِّدًا لنَيْـلِ ثقَتِهـا، أثناءَ فترةِ بناءِ صـداقتِهما، من خلالِ شـرحِه الموجَـزِ لمرةٍ واحـدةٍ- إلا إن مَرَّ ذِكْرُ الموضـوعِ كإشـارةٍ عابرَةٍ فيمـا بعدُ- أوجـاعَ وحدَتِه بعد أن هجرَتْـه زوجتُه الجيورجية بعد زواجٍ دامَ تسـعَ سـنواتٍ، عائدةً مع ابنتيْهِ الصّغيرتينِ إلى بلادِهـا جنوبيّ القوقاز من دونِ رجعَـةٍ، تاركةً «بلادَ الحربِ» لأبنائِها من اللّبنانيين الذين «لا تمتُّ إليهم بِصِلَةٍ»، كما كانَتْ تقولُ، ولا ترى من أمَلٍ يُرجَى في تحسينِ وضعِ الشَّعبِ الذي يُسـاقُ من حربٍ طائفيَّةٍ ومذهبيةٍ مُقَنَّعَةٍ إلى أُخرى، وتاركةً- في الوقتِ ذاتِه- له البابَ نصْفَ مفتوحٍ إن شاءَ اللَّحاقَ بها.

وكانَ، رغمَ اشـتياقِه للصّغيرتينِ، قد أنهى الحديثَ بطريقةٍ مفتوحةٍ على احتمالَيْنِ مُتأرجحَيْنِ يزيدُ أولُهما على الثّاني في نسبةِ احتمالِ تطبيقِه، نظرًا إلى تعلُّقِه غيرِ المَرَضِيِّ بانتماءٍ لهويّةٍ لا يملِكُ غيرَها: البقاءُ حتى يستحيلَ البقاءُ!

وما عزَّزَ ثقتَها به قبلَ أن تستضيفَهُ إلى عالمِها الذي أوجَعَها ما وصفَهُ به صباحَ اليوم، استضافَتُه إياها على مائدةِ أوجاعه التي كانَ يستخرجُها من تاريخِه هو. وكانَ يربطُ بينها خيطٌ رفيعٌ ولكن شديد المتانة يتعلَقُ بفلسفَتِه القاتمَةِ عن المَوْتِ، والتي يغلِّفُها، في كثيرٍ من الأحْيانِ، بمَزْحَةٍ أو ينهيها بضحكةٍ إثْرَ دُعابَةٍ يوجِدُها ببراعَةٍ، إلا إذا تجاوزَ تَقَبُّلُ حالةٍ منها قُدْرَتَه الذِّهنيةَ والنّفسيَّةَ على الإذعانِ لها؛ عندها يختفي كلُّ اختباءٍ وراءَ أي مظهرٍ من المظاهرِ المرِحَةِ.

وإلى جانبِ سخائِه في طرحِ الحلولِ المتعلِّقةِ بها- أكاديميًّا فحياتيًّا- مكثَّفَةً، منطقيّةً، مختصَرَةَ الكلماتِ، لا تُقَدَّمُ إلا مرةً واحدةً أيضًا، متوقِّعًا- بثقةٍ لا تُكبَحُ- أن تنَفَّذَ؛ فإن لم يحدُثْ هذا، لم يعاتِبْ ولم يجادِلْ؛ كانَ أيضًا سخيَّ الاهتمامِ بالفتاةِ التي تسيرُ سيْرًا حثيثًا نحو أواخرِ العَقْدِ الثّاني من عمرِها، والتي تضعُ اللّمساتِ الأخيرةَ على رسالةِ الماجستير في كلّيّةِ التّربيةِ في موضوعِ نشوءِ مسرحِ «الماريونِتْ» في لبنانَ، حاملةً إليه في أولِ زيارةٍ في مكتبِه في كلّيَّةِ الفُنونِ باقةَ وردٍ أبيضَ، متوقعَةً أن تضيفَ دراساتُه المتخصصةُ في هندسةِ المسارحِ

الدّاخلية والمنشورةُ في كتيّباتٍ أو دوريّاتٍ أو محاضراتٍ أو في مجلةِ الجامعةِ إلى دراستِها ما يعزِّزُ بحثَها التّربويَّ ويضيفُ إليه رصانَةَ علومِ النّسبة والمقياسِ من خلالِ الشّكلِ والخطوطِ واللّونِ والنّقشِ والملمَسِ، وعلاقةِ كل هذا بالحركةِ المَسْرَحيةِ المتناسقةِ والمرتبطةِ ارتباطًا وثيقًا بنقطة التّركيز.

وكانَ لفَرْقِ عَقْدٍ ونصف العَقْد من الزَّمَنِ العُمْريِّ والأكاديميِّ بينهما تأثيرٌ إيجابيٌّ عليها، ما جعلَها تتقبلُ نصائحَهُ في كل حينٍ، خاصّةً وأنَّه يجيدُ- رغمَ استعدادِه للذَّهابِ إلى أقصى حدودِ المرَحِ واللّعبِ عندما يعطي أحدًا ثقتَهُ- تأديةَ دورِ «الأكبرِ» سنًّا، سواء من خلالِ مخاطبةِ طلّابِه والطّالباتِ وحتى النُّدُل في الكافيتيريا وعمال النّظافةِ في الجامعةِ بكلمة «عمو»، رغمَ أنه لم يتجاوز وقتَها الأربعينَ إلا بعامٍ أو اثنينِ. وإنْ خصَّها، من غيرِ أن يحيدَ كثيرًا عن موقعِه فَوْقُ بلقبِ: «عزيزتي» الذي- مع الأيامِ- تحوَّلَ إلى «غاليتي»، فوصلَ أخيرًا إلى مرحلةِ «الأَغْلَى»!

ومن النّصائحِ تلكَ التي أسداها لها بعدَ أن قدَّمَ لها «لعبة ماريونيت» ذهبيَّةً صاغَها جوهريٌّ كما رسمَها له لتعلِّقَ، إلى

اليـوم، مفاتيحَها فيها احتفالاً بنيلِها شـهادةَ الماجسـتير التي تركا فيها الحضورَ بمجردِ أن انتهَتِ المناقشَةُ مُتَسَلِّلَيْنِ إلى ذلكَ المطعم «الأزنافوريِّ» الواقع على شـارعٍ فرعيٍّ يطلُّ على كتفِ الرَّوْشَةِ، حاملَيْنِ من ضيافَةِ الشّوكولا ما ملأَ جيبَ سترتهِ فيما اعتبراه «غنائمَ حربٍ» بدأ تقاسـمُها بينهما عندما قشَّرَ الحبةَ الأولى مقرِّبًا إياها إلى شـفتيْها، طالبًا منها أن تقضِمَ نصفَها «لا أكثرَ»، مُسـتبْقِيًا على النّصْفِ الثّاني ريثما تعطيهِ رأيَها، شرطَ أن تغمِضَ عينيْها كما يفعلُ الذّواقونَ العالميونَ الذين يعوِّلونَ على امتلاكِ الحواسِّ بوجهٍ كاملٍ من خلالِ التّدرُّبِ البصريِّ والذّوقيّ والشّمّيِّ والحَراريِّ واللّوني..، وكلّها من اختصاصِهِ الأكاديميِّ المبنيِّ على تذوقِ الفنِّ من كافةِ جوانبِهِ وصولًا إلى مرحلةِ الإبداعِ التي تميزُ مهندسَ ديكورٍ عن آخَر.

وبعـدَ أن سـمعَ تقييمَها، تناولَ حصَّـتَهُ وأَغمضُـ عينيه، وأَعطـى تقييمَهُ، ثم انتقلَ إلى الحبة الثّانيـة، فالثّالثة، فالرّابعَةِ إلى أن وصلَتِ البيتزا؛ فكفَّا عن الضّحكِ مُنتقلَيْنِ إلى اقتسامِ وجبةِ النَّجاحِ، طالبًا منها أن تقسمَ نصفَ رغيفِها المُعَدَّ بالخضارِ ونصـفَ رغيفِه المُعَـدِّ بمزيجِ الأجبانِ وتسـتبدلهما. فإن طابَ

لأحدِهما طعمُ إحدى الوجبتينِ، يحق له أن يقسمَ الأنصافَ. وكلُّ هذا على وقعِ أغنية She لشـارل أزنافور التي تتكررُ من غـيرِ توقّـفٍ، والتي همسَـ في أذنِها وهو ينقـل مفاتيحها إلى العلَّاقة الجديدة حرصًا على ألا تكسرَ أظافرَها:

- أَصِـرّي علـى الاحتفالِ بكلِّ ما تنجزينَهُ، سـواء أكنْتُ معَـكِ أم لم أكُـنْ. وبدءًا من يومِ غدٍ، يجـبُ أن تكونَ على طاولتِكِ رسـالةُ الدّكتوراه التي سـتتناولين فيها- كما سبقَ وبلَّغْتِني، تأثيرَ مسـرحِ الطّفلِ بأنواعِـهِ: مِن غِنائيٍّ، أو تِلْقائيٍّ، أو مدرسـيٍّ تعليميٍّ...، على بناءِ شخصيتِهِ اجتماعيًّا وعلميًّا وفنّيًّا ولغويًّا وتربويًّا. وهو موضوعٌ جديرٌ، يا عزيزتي، بالاهتمام وإنْ كنْتُ لا أفقهُه؛ إذ لم أهتمَّ يومًا بالبحثِ عن تفاصيلِه، وإنَّ سمحْتُ لنفسي بطرحِ اقتراحِ حَصْرِ بحثِكِ بالمرحلةِ الابتدائيَّةِ التي أكسبَكِ تدريبُ الأَطْفالِ فيها لسنواتٍ- كما نقولُ نحنُ أبناءُ الحـربِ: في مدارسِ المِنْطَقَةِ الشّـرقيةِ، فالغربيَّةِ- على الأداءِ المَسْرَحيِّ خبرةً وشهرةً ستسهِّلُ عليكِ تناولَ تفاصيلِه، وسـتعطيكِ في المستقبلِ مركزًا أكاديميًّا يدعَمُ عملَكِ حتى لو قررْتِ ألا تُدرِّسي في الجامعةِ.

وخلالَ الأُسبوعِ التّالي، كانَت مراجِعُها قد وزِّعَتْ على ثلاثِ طاولاتٍ: في مكتبةِ الجامعة، ومكتبةِ المدرسةِ، والبيتِ.

(4)

شـعرَتْ ببردٍ يأتي من صوبِ البحرِ، وحاولَتْ تفاديه بلفِّ منديلها- الذي من مهمّاته المتعددة دَرْءُ أضـرارِ هواءِ مكيفِ سيارتها- حولَ رقبتِها صعودًا إلى ذقنِها فأنفِها؛ لكنَّها تذكرَتْ أنها نسيته في مكتبه.

ثم تذكَّـرَتْ كِمَامَتهـا؛ فأخرجَتْهـا من جيبِهـا وارتدتْها. وفوجئَـتْ برائحةِ عطرِه عليها، وتذكـرَتْ أنها مرَّتْ براحتِه ثم جيبِه قبل أن تستعيدَها، فابتسمَت ابتسامَةً واسعةً، مُتَغاضِيَةً، لضروراتٍ صحّيَّةٍ، عن كونِها- في لحظاتِ البردِ هذه- تتنفسُ عطرَ فارِضِ العُقُوباتِ.

وتذكّـرَتْ أنَّ اهتمامَـه بحياتِها الأكاديميةِ التـي لا يوليها عـادةً إلا لمـن يملك من المثابـرةِ حدودَها القُصـوى، لم يمنعْهُ مـن مدِّ يدِ العـوْنِ العائليّة عندما كان يحسُّ بحاجَتِها الماسَّـةِ إليهـا، حتى لو لم تعـترفْ بتلك الحاجة، نأيًا بـه عما تعتبرُه خصوصـياتِ كلِّ عائلةٍ، وربما خوفًا من أنْ ينفّرَ الاقترابُ هذا

الشّخص إذا ما وصلَ إلى حدِّ إبصارِ عيوبِ تفاصيلِ سَيْرِ الأحداثِ داخلَ جدرانِ بيتِها، بدءًا بقضيةِ شقيقِها الذي يصغُرها بسبعِ سنواتٍ، والذي شُلَّ بسببِ حادثِ سيارةٍ بينما كانَ عائدًا من معهدِ الموسيقا الذي يدرِّسُ فيه البيانو مُذْ تخرجَ من «الكونسرفتوار»، فانكفأَ في غرفتِهِ لا يقابلُ أحدًا لأكثرَ من سنتينِ إلا هي وأمّهُ وطبيب العلاجِ الفيزيائيِّ، فالطّبيبُ النّفسيُّ، ما أصابَ الأمَّ الأرملةَ بكمَدٍ لم تخرُجْ منه إلا تدريجيًّا عندما فتحَتِ ابنتُها لهما بيتَها ليكونا في دائرةِ اهتمامِها القريبةِ، فإذا بها تصارعُ- شبهَ وحيدةٍ- مُشْكلةً أكبرَ من عمرِها، وكادَتْ أن تكونَ أكبرَ من احتمالِ استيعابِها لولا وقوفُه إلى جانبِها، داعمًا بمهارةٍ لا نظيرَ لها، بتفكيرِهِ «البراغماتي» غيرِ التّقليديِّ، نظريةَ نيتشه القائمةَ على أن المفكِّرَ الحقيقيَّ هو ذلك القادرُ على اعتبارِ الأشياءِ أبسط مما هي عليهِ.

ووقفَ داعمًا حتى حينَ أضيفَتْ إلى مشكلةِ أخيها وأمِّها مشكلةُ أَلْزَهَايْمَرْ عمَّتها (فريدة)، إذ تبرَّعَتْ نظريًّا بإيصالِها إلى دارِ العَجَزَةِ، لكنَّها «خطفَتْها»، مُنقذَةً إياها- بفخرٍ- من قرارٍ

«وضـيع» اتّخذَتْهُ عمَّتُها الأصـغر (مفيدة)، التي تُقَدِّمُ نفسَها في أحاديثِها التي تدلُّ على أنَّها لا تفهَمُ كثيرًا ولكن تتحدثُ في كلِّ شـيءٍ، مسـؤولةً- كَذِبًا- عن قـرارتِ العائلةِ مذ توفي شقيقُها الأكبرُ، آخذةً بعينِ الاعتبارِ الحفاظَ على هدوءِ بيتِها- بعدَ أن سـافرَ كلُّ أولادِها- من الانهيارِ تحت ضرباتِ فوضى وجودِ شـخصٍ مريضٍ يكبِّلُ حركتَهـا ويجلبُ الأصـدقاءَ والأقاربَ لعيادتِه، هي الحريصة على تحصينِه بأبوابٍ موصَدَةٍ ومفاتيحَ مخبأةٍ في أدراجٍ لا تُفْتَحُ حتى في المناسباتِ السّعيدةِ أو الحزينةِ.

ورغمَ أنَّ العمة (مفيدة) سبقَ وأعلَنَتْ تكفُّلَها بكلِّ ما يلزمُ من مصـاريفِ إقامةٍ وعلاجٍ في الدّارِ؛ فقد سـحبَتْ عرضَـها بشكلٍ نهائيٍّ ردًّا على فعلِ ابنةِ أخيها «المتهوِّرِ» و«غيرِ اللَّائقِ»، بل «المُشـينِ» الذي يظهِرُها «على حقيقتِهـا»- كما تقولُ ابنةُ أخيهـا- بمظهرِ الأختِ الأنانيةِ التـي تريدُ التّخلصَ من عِبْءٍ ثقيلٍ مُقابلَ أيِّ بديلٍ مـادّيٍّ رغمَ ما يُعرَفُ عنها من حِرْصٍ، فأقسَـمَتْ ألا تدوسَ عتبةَ بيتٍ تسكُنُه حتى لو كانَتْ أختُها المريضةُ فيه، وألا تصرِفَ عليها قِرْشًا عقابًا لَمَن قرّرَتْ ونفّذَتْ.

ورغمَ أنَّه كانَ ضـدَّ «خَطْفِ» العمَّـةِ، ولم يدرِ بالعمليَّةِ إلا بعـدَ تنفيذِها بأيـامٍ، فقدِ اقـترحَ عليها القيامَ بمحاولـةِ إجراءِ مفاوضاتٍ ماليَّةٍ معَ العمةِ (مفيدة) المنسحبةِ من مسؤولياتِها، تحسُّـبًا لما قد يطرأُ في حـالِ تفاقَمَتْ حالتُها الصّـحيَّة؛ إذ لن تسـتطيعَ وحدَها التّكفُّلَ- بمعاشِـها البسـيطِ- بما قد يستجِدُّ فيتطلبُ مبالغَ لا يُستَهانُ بها.

بيدَ أنه استسلمَ أمامَ إصرارِها على إكمالِ مُهَمتِها تجاهَ مَن تعتبرُها أمَّها الثّانيةَ، مُستغنيَةً عن قَبُولِ أيةِ مساعدةٍ ماديّةٍ من عمَّتِها التي تدعوها بـ«هادم اللّذات»، والتي- إن حصـلَتْ- ستجرُّها وأفرادَ عائلتِها إلى تدخُّلٍ يوميٍّ سافرٍ في شؤونِهم، قائمٍ على كثيرٍ من التَّبَجُّحِ والتَّعَظُّمِ والغَطْرَسَةِ وتضخُّمِ الأنا.

وإذ قبّلَ بحنانٍ جبينَ المريضـةِ بعد أسـبوعٍ من «خطفِها»، التفَـتَ إلى ابنـةِ أخيها متمنّيًـا عليها ألا ترهقَها بأي سـؤالٍ يحتاجُ إلى جوابٍ، معتبرًا أن عبورَ الجسـرِ من المعتَني بمريضِ ألْزَهَايْمَرْ إلى المريضِ هو سِرٌّ من أسرارِ تسهيلِ التّعاملِ معه فيما بعد.

شارحًا، وهو يحملُ لها الكتبَ العلميَّةَ والرِّواياتِ الواقعيَّةَ

عن المرضِ وتطورِه بعدَ أن يقرأَ معظمَها ويضعُ آثارَهُ من سطورٍ تحتَ الأفكارِ المُهمــةِ أو تلخيصٍ على هامشِ الكتابِ، أنَّ من السُّخفِ وصْف مرضى أَلْزَهَايْمَرْ بالأَطْفال الصِّغارِ؛ فالبالغُ أبدًا لا يعــودُ طفلًا، إذ ينمو الطِّفلُ بطبيعته إلى الأمامِ، ويكتســبُ قدراتٍ جديدةً، بينما يفقدُ هذا المريضُ قدراتِه متراجعًا. ومن هنا، فما عليها إلا اســتخدامَ الخيالِ معها، فهو- حسب ما قَرأَ ويَقرأُ- يخففُ شدَّةَ التّعقيدِ النّاتجةَ عن فقدانِ القدرةِ العقليةِ.

وإذ طمأنَهــا إلى أن العنايةَ بعمتِها تحتاجُ بشــكلٍ رئيسٍ إلى عنُصــرَيِّ الحُبِّ والصَّــبْرِ، لم يُخفِ حقيقةَ أنَّ سنواتِ المرضِ «غيرِ المميتِ» قد تطولُ فتصِل إلى عشرينَ سنةً.

فأومأتْ برأسِــها ومنحَتْهُ ابتسامةً مســؤولةً، فاعتصرَ كفَّها بحنــانٍ وكأنَّهُ يقــدِّرُ كلَّ ما تفعلُه من أجلِ عائلتِها المختصَــرَةِ بهؤلاءِ الثَّلاثةِ، كما تقفُ أمٌّ تجاهَ أبنائِها.

وردَّ على ابتسامتِها بابتسامةٍ حزينةٍ تُظْهِرُ- كالعادةِ- تعاطفَهُ الإنسانيَّ الثّريَّ مع كلِّ حالاتِ المرضِ والموتِ، أتبعَها بقوله:

- «في لحظةٍ، ستأخذُ عمتُك نفَسًا لن يتبعَهُ آخَر»!

مستخدِمًا هذه العبارةَ التي قرأها لكاتبٍ ألمانيٍّ سردَ قصتَه

مع أبيهِ المريضِ بالمرضِ ذاتِهِ. ثم أزاحَ عينيهِ عن وجهِ العجوزِ غاصًّا، فمقترِحًا- في الوقتِ نفسِه- عليها الانتقالَ معها ومع شقيقِها وأمِّها إلى بيتِ جدِّها لأبيها في بلدتِها الشّوفيَّةِ التي تبعدُ حوالي عشرين كيلو مترًا عن جنوبي بيروتَ، بدلَ أن تنقلَهم معها من بيتِ إيجارٍ إلى آخَرَ تدفعُه من راتبِها الضّئيلِ في العَاصِمَة وراتبِ والدِها التّقاعديّ، خاصّةً وأنَّ البيتَ مهجورٌ منذ سنواتٍ، وحولَهُ حديقةٌ كبيرةٌ قد تساهمُ بطريقةٍ ما، لا يعرفُ ما هي، في تسريعِ شفاءِ شقيقِها.

لكنَّها أجَّلَتْ تنفيذَ الفكرةِ إلى ما قبلَ سبعِ سنواتٍ من اليوم، لم يكن فيها موجودًا على مسرحِ حياتِها؛ فكانَ بيتُ جدِّها الحجريُّ الذي لا تتجاوز مساحته أربعمائة متر نصفها مساحة الحديقةِ المحيطةِ، والذي تقيم به اليومَ هو الوحيدُ الذي لا يعرفُ خريطته، فيما كانَ أولَ مَن يدخلُ إلى كل بيتٍ تنتقلُ إليه وسطَ العَاصِمَة حاملًا نبتةً خضراءَ، وداخلًا بقدمِه اليمنى تفاؤلًا، كما كانَ يقولُ، مردِّدًا نظريَّةَ جدَّته ومبتسمًا ابتسامتَهُ الحيويَّةَ، ثم مضيفًا إلى أحدِ الجدرانِ لوحةً من هنا، أو مُزيحًا أريكةً من هناك، أو مقترِحًا تغييرَ ستارةٍ من هنا، أو

طاولةٍ من هناك، ودائمًا يعلِّقُ خلفَ سـريرِها لوحةَ قصـيدتِه النّحاسيّة الوحيدةَ التي لم يمنَّ الإلهامُ عليه بغيرِها- كما كانَ يقولُ ساخِرًا- والتي يتحدثُ فيها بعاطفةٍ رقيقةٍ عن حبِّهِ لها، طالبًا منها أن تحافظَ عليها «برموشِ عينيها»، فقد خرجَ شيطانُ شـعرِهِ مرةً من وادي عَبْقَرَ وتلاها عليه، واختفى تاركًا إيّاهُ بين مساطِرِهِ وأدواتِه الهندسيَّةِ وألوانِهِ.

(5)

تتذكرُ الآنَ كم بسَّطَ مشاكلَها، وإن لم يستطعْ أن يبسِّطَ مشكلتَهُ الأبويَّةَ التي ظلَّتْ، رغمَ إحاطتِه إياها بهالةٍ من الكِتْمانِ، تؤرّقُهُ حتى لو ادَّعى أنَّ رأيَها، في تلكَ المرةِ الوحيدةِ التي طرحَها عليها فيها، والذي اختصرَتْه بأنّها تطمَئِنُّ- في حالاتِ فراقِ الآباءِ- إلى وجودِ الأبناءِ في كنَفِ أمهاتهم، هو رأيٌ مهمٌّ.

فقد كان من النّوعِ الذي يستغرقُ فيه الخروجُ من مشاكلِه وقتًا يسمحُ نظريًّا لا عمليًّا لأحَدٍ باجتزائِه، رغمَ ظهورِه بمظهرِ المُصغي والمهتمِّ والمنتظِرِ بابتسامةٍ تَلَقُّفَ حلٍّ ممَّن ينصحُه؛ لذا فقد اعتادَتْ في تعامُلِها معَه أن ترسمَ كثيرًا من الخطوطِ الحمراءِ تتوقفُ عندَها، تاركةً إياهُ يُنهي بحريَّةٍ تامَّةٍ آخرَ ثواني مُهَلِهِ الزّمنيّة التي لا تلاحقُ تفاصيلَها أو أسبابَها حِرْصًا على احترامِ خصوصيتِه.

والغريبُ أنها كانَتْ تعتقدُ أن السَّنواتِ الثَّمانيةَ الأخيرةَ من

ضـمنِ المُهَلِ المعطاةِ له كما كثير من مُهَلٍ استغرَقَتْ شهورًا، واستُكْمِلَتْ كأنّها لم تنقطعْ بمجردِ أن تلتقيه في الشّارعِ صدفةً أو في مقهـى، أو- كما قالَ لها اليوم- بإرسـالِها كتابًا أو مقالًا إلى حيثُ يتواجَدُ، تترُكُه عند السّـكرتيرةِ وتنسـحبُ كَلِصٍّ، فيما اعتبرَه ضـاحِكًا ضحكَتَهُ التي تحبُّ: «حَرْكَشَةً» موصوفةً لا تزعجُهُ، بل تعجِبُه.

وهو، وإن أشارَ في عَجَلةٍ- صباحَ اليوم- إلى استغرابِه كفَّها عن هذه «الحَرْكَشَةِ» طوالَ سنيٍّ قرارِهِ «القاسي»؛ لم يُشِرْ إلى إعلانِ اسـتهجانِه اختفاءَها هي شخصـيًّا مـن أي مكانٍ كانَ يراها فيه بمحضِ الصِّـدفةِ، أو قَصْـدًا بناءً على قراراتٍ فرديَّةٍ متفرِّعَةٍ عن قرارِهِ الأسـاسِ الذي اتّخـذَهُ ونفَّذَهُ، وذلكَ عندَ مرورِه مرارًا قربَ بيتِ جدِّها وصـفِّ سيارتِه قُبالةَ شبَّاكِ غرفةِ نومِها المطلَّةِ على ساحَةِ بلدتِها ومبنى المحكمةِ.

ورغمَ توقُّفِه لمراتٍ تفصـلُها شـهورٌ أو سـنواتٌ لشراءِ ماءِ الزَّهرِ والوردِ أو بعضِ البقولِ والكشـكِ والزَّعترِ من المطحنةِ القريبةِ من بيتِها، أو لشراءِ «المَرْصَبانِ» المصنوعِ يدويًّا من قِبَلِ سـيداتِ البلـدةِ والمُباعِ في دكّانٍ صـغيرِ المسـاحَةِ، أنيقٍ، مع

مرَبَّياتٍ يصـنعنَها في مواسـمِ قطْفِ فاكهَتِهـا، أو المرورِ بعضَ أيامِ دوامِها قربَ بوابةِ المدرسةِ التي انتقَلَتْ إليها بدلَ مدرسةِ بيروتَ، والواقعةِ بينَ المحكمةِ ومبنى البلديةِ المُلحَقِ به ملعب التِّنس، لعلَّهُ يراها خارجةً مشيًا على قدمَيْها إلى بيتِها القريبِ، فلم تحدُثِ الصِّدفةُ ولا حدَثَ القَصْدُ.

فكأنهـا كانَـتْ، مـع قـرارِ إقفالِها كل وسـائلِ التّواصـلِ الاجتماعـيِّ الخاصِّ بهـا لسـنواتٍ قاربَتْ نصـفَ عَقْدٍ، قد أقفلَتْ طيفَها أيضًا، أو لبسَتْ طاقيَّةَ الإخفاءِ أثناءَ تنقُّلِها. ومع ذلكَ، كانَ يشـعرُ بالطُمَأْنينة الثّريةِ كلما مرَّ أو توقَّفَ، اشترى أو لم يشترِ، رآها أوْ لم.

(6)

فجأةً، علَا زعيقُ أبواقِ السّـياراتِ خلفَها، فتنبهَتْ إلى أنَّها كانَتْ شـاردةً عندما تحوّلَ الضّـوءُ الأحمرُ إلى أخضرَ، ونالَتْ شـتيمةً بذيئةً من تحتِ كِمَامَةِ سـائقِ تاكسي منفوشِ الشَّعرِ، أبيضِـه، بَرِّيِّ العينـينِ، كأنَّهُ لصٌّ أو قاطعُ طريـقٍ عتيقٌ، وقد ألحقَها بشتيمةٍ ذكوريةٍ متطرّفَةٍ:

– الله يلعَن كل مَن يعطي امرأةً «دفتر سواقة»!

ولم تُلْـقِ إليـه بـالًا، إذ تُغْفَرُ لعَنَاتُ شـعْبٍ لفظيّـةٌ إذا ما قورِنَـتْ باللَّعَنـاتِ العمَليَّةِ المصـبوبَةِ على رأسِـه من دونِ أن يحظى بهُدْنةٍ، وآخرُها حيثُ أوقَفَتْ سيارَتَها يمينًا على رصيفِ كتفِ «مرفإِ العزِّ» الذي (اسـتُبْدِلَ «قبضـاياتُهُ») بالسُّفَّلِ من عديمي الشَّـرفِ وأغنياءِ الدَّناءة؛ واسْتُبْدِلَ محبُّوهُ بالحاقدين الأَخسَّاءِ؛ واسْتُبْدِلَ أهلُ كَرَمِه بالطّمّاعينَ؛ تمامًا كما اسْتُبْدِلَ متيَّمـو سـلامِه وطُمأنينتـه بأُثَماءِ الشَّـرِ ولصـوصِ الحرب، فأُشْعِلَ؛ وأُحْرِقَ البشرُ قبلَ الحجَرِ.

وفكَّرَتْ بوجَـعٍ حاولَتْ عبثًا أن تمزُجَهُ ببعضِ أملٍ، أنْ: قدْ يُعـادُ بناءُ ما تهدَّمَ، وقدْ تُرمَّمُ الأَبنيةُ التُّراثيَّةُ المُخلَّعَةُ، ويَغسِـلُ البحرُ الأَرصـفةَ الملوَّثةَ بجشعِ جماعاتٍ «هل مِن مزيد»؛ غير أَنَّ الفرحَ الكئيبَ، لآباءٍ وأُمَّهاتٍ وزوجاتٍ وأولادٍ شَيَّعوا بدمعِ القهْرِ أُذُنًا، ذِراعًا، عظْمَةً محروقةً- أو ربَّما مسْحُوقةً- لحبيبٍ مرَّ مِنْ هُنا؛ سـيظلُّ جمرًا يتلظَّى، متوثِّبًـا تحت حُرْقَةِ أنَّ الحبيبَ «لَنْ يَعودَ»!.

وفكَّـرَتْ- كمـا يُفْتَرَضُ بـأيِّ فَردٍ من أفرادِ هذا الشّـعْبِ أن يفعلَ- بليبراليَّةٍ كلاسـيكيَّةٍ، يُفتَرَضُ أيضًـا ألا يخشـى صاحبُها أنْ يُبعَدَ بسببِها إلى منفًى ظروفه أسوأ من هذا المَنْفَى الذي يعيشُ فيه:

ما أبشعَ أن تُحْكَمَ مِن وَحش سُلْطَةٍ، كلَّما اعتقدْتَ أنَّه ماتَ، أو أنَّهُ على وشـكِ أن يموتَ، قهقَهَ برعونةٍ قائلًا: «أنا هنا، أبقى هنا، تموتُ أنتَ ولا أموتُ!».

وعادَتْ إلى سـيّارتِها وقد بورِكَتْ رئتاها بتنفُسِ ذرّاتِ مَن رقَـدَ في سـماءِ هذا المـكانِ ناظِرًا إلى مَن بقـيَ حيًّا على هذه البُقعَةِ بشفَقَةٍ من فوقُ.

وتابعَتْ سيرَها نحوَ شارعِ الحمراءِ، مكتشفَةً أهميةَ «العَجْقةِ» التي أتاحَتْ لها فرصةَ تفكيرٍ فريدةً لم تكنْ لِتخطُرَ على بالِها.

وتمديدًا لهذه الفرصــةِ، وتكريسًا لها، توقفَتْ بعد أمتارٍ يمينًا لاحتســاءِ كوبٍ كبيرٍ مــن القهوةِ من دونِ أن تأبــهَ إن كانَت العربَةُ التي تبيعُه نظيفــةً أم لا، وإن كانَت يدا البائعِ مغطاتَيْنِ بقُفازاتٍ معقَّمَةٍ أم لا، أو كانَ قد حرّكَ القهوةَ بملعقةٍ مســحَها بمريولِهِ القذرِ، فقد نســيتْ- في غمرةِ المفاجأةِ الصّــاعقةِ- تمامًا هلَعَ كورونا وأخواتِها.

ولم تنتبــهْ إلى أن مظهرَ القَهْوةِ الخفيــفَ ومذاقَه أقربُ إلى طعْمِ خليطِ عَكَرِ زيت الزّيتون ممزوجًا بطعْمِ الحُلْبةِ الكريهِ، بينما رائحتُه كرائحةِ حلْتيتِ صــيدليَّةِ جدَّتها إلا حين اقتربَتْ من تجرُّعِ آخرِ نقَاطٍ في قَعْرِ الكُوبِ، فكفَّتْ عن الشُّــربِ، وندمَتْ إذ أزالَتْ طعْمَ نصفِ القُبلَةِ اللّذيذِ الممزوجَ برائحةِ عطرِهِ بهذا السّائلِ القاتلِ.

لكنَّهــا ظلَّتْ واقفــةً تتأمــلُ من شــبّاكِ ســيارتِها المفتوحِ ثراءَ المدينةِ الــذي افتقدَتْهُ مذ انتقلَــتْ إلى بلدتِها، فالتقطَتِ ابتســاماتِ أطفالٍ مع أمهاتِهم يمشــونَ على أرصفةِ الشَّوارعِ،

وقـد أزاحـوا كِمَامَاتهم الملونةَ عن وجوهِهم رافضـينَ حواجزَ كبْتِ الضَّحك.

كما التقطَتْ ضـحكاتِ شحادتينِ جلسـتا تتسامرانِ غير آبهتينِ بمارَّةٍ لا يلقونَ إليهما نقودًا، فقد كانتا مشـغولتينِ بأكلِ منقوشـتيٍّ زعترٍ بالخضـارِ وقد حضّـرتا قنينتي ميـاهٍ لما بعد الأكلِ. وبدا واضـحًا من الكيس الموجـودِ قربَ إحداهما أنه مليءٌ بمؤونة البسكويت وبعض الشّطائرِ المعدَّةِ في بيتهما؛ لأن دوامَهما طويلٌ، وكدحَهما لا يُستهَانُ به.

وثمةَ بائعُ كتبٍ قديمة على الرّصيفِ، وبقايا سادةٍ «مثقّفين» يحتسـونَ القهوةَ في مَقَاهٍ على ناصيتي شارعِ الحمراءِ المكتظِّ، وسـيدات يتأملْنَ واجهاتِ ما بقيَ من محالَّ لم تقفلْها الأزمةُ الاقتصاديَّةُ بعدُ، ويفكرْنَ بما قد يستطِعْن شراءَه قبل مزيدٍ من ارتفاعٍ مجنونٍ متوقَّعٍ لصـرف الدّولار بعد أن عَرقَلَ مسـاعيَ تأليـفِ حكومةٍ لن يكون وجودُها بأفضـلَ مـن عدَمِه لُهاثُ الزّعـرانِ ممَّن غُمِسَـتْ أيديهـم منذ أيامِ الحـربِ الأهليَّةِ، في السَّـبعينيات، بدماءِ النّاسِ، وما زالوا متجذرينَ وفروعَهم في مفاصلِ السُّلطَةِ، قادرينَ على كَمِّ أفواهِ مَن يعترض حتى قبلَ

أن يعترضَ، خائفينَ من أقلامٍ كُسِرَتْ ودُفِنَتْ بمبارَكَةٍ منهم خوفَ قاتلٍ من شبحِ مَن قتَلَه، محميينَ ممَّن يُعتَقَدُ أنهم أبعدُ ما يكونون عن ملفاتِ الفسادِ، وليسوا!

وتوصلَتْ وهي ترقُبُ الوجوهَ، إلى نتيجةٍ مفادُها أن سُكنى المدينةِ يبعدُ شبحَ رعبِ هجومِ الجَائحَة التي يشعرُ بها سكَّانُ المناطقِ الهادئةِ القليلِ عدد ناسِها كما هي حالُ بلدتِها التي لا يتجاوزُ عدد سكانِها ألفَ نسمةٍ بما فيهم الوافدينَ إليها، والمقتصِر نشاط تجارتِها على دكَّان هنا وصيدليّةٍ هناك، وفرنٍ هنا، ومحل تشريج هواتفَ هناك. والتي يترصَّدُ سكانُها، مساءَ كل يوم، أسماءَ مَن أصيبَ مِن الأقاربِ والجيرانِ تُنْشَرُ على صفحةِ البلديةِ الإلكترونيَّة، فيختبئونَ موصِدينَ أبوابَهم خشيةَ هجومِ فايروسيٍّ بربريٍّ يقتربُ أكثرَ فاكثرَ، خاصةً إن أُغلِقَتِ البلدةُ أسبوعًا تلاهُ أسبوعٌ ثانٍ أو ثالثٍ، فأصيبَتْ سمعتُها الصّحيةُ بما يشبه المَقْتَل.

وحتى لو آثرَ أهلُ مَن ماتوا- بسببِ الجَائحَة- أن يلملموا الموضوعَ ويدفنوا، من غيرِ طقوسٍ، ميتهم ويدفنوا معَهُ أسبابَ موتِهِ الحقيقيِّ، وإن كانَ لا يُخْفى على أهلِ البلدةِ خافيَةٌ، ينشرُها

العجائزُ من الرِّجالِ خاصَّـةً، أولئكَ المنتشـرونَ في النَّهارِ على أدراجِ مبنـى البلديةِ، أو الحاملون إلى الحديقةِ الصّـغيرةِ المقابلةِ لها كراسـيَهم التي تُطوى وتُفتَحُ لتسـتقرَّ ساعاتٍ على عشبِ الحديقةِ المشـذَّبِ بحجةِ ملاحقةِ أشعَّةِ الشَّمسِ حينًا، أو انتظارِ بناءِ مغارةِ الميلادِ التي بدأ الإعدادُ لها في هذا الوقتِ من السّنةِ، وتستغرقُ- مع تزيينِ الشّجرةِ- حوالَيْ شهرٍ كافٍ للتَّشهيرِ بأهلِ من مـاتِ «متكورنًا»، مدّعينَ، كذبًـا، أنَّ المرَضَ ليسَ عيبًا؛ بل يجبُ تعريف أهلِ البلدةِ بمنْ حملَهُ وماتَ أو لم يَمُتِ اتّقاءَ شـرِّ العَدْوى، وإلا فإنَّ عودتَهم إلى بيوتهم التي أصلحوها بعدَ تهجيرٍ طويلٍ وبعد أن هُدِمَ معظمُها بسـبب عصـاباتِ الحـربِ بالمالِ الذي قدمَتْه لهم وزارة المهجّرينَ، سوفَ تفنيهم عن بكرةِ أبيهم، فيقدرُ فايروس حقير على ما لم تقدرْ عليه مخططاتُ أهلِ الشَّرِّ.

ومرةً جديدةً زعقَ بوقُ سيارةٍ خلفَها، وطالبَها سائقُها بمغادرةِ مكانِ وقوفِها ما دامَتْ لا تنوي شربَ مزيدٍ من القهوةِ، لتفسحَ المجالَ لعُشّـاقِ قهوةِ الحُلْبـةِ والحِلْتيتِ بتـذوُّقِ ذلكَ الطَّعمِ النَّادرِ؛ فغادرَتِ المكانَ وهي تشـعُرِ بشـماتَةٍ شـرّيرةٍ بالسّائقِ الذي قطعَ عليها شريطَ مشاهداتِها.

(7)

ولم تشأْ أن تعودَ إلى البيتِ؛ بل لم تشأْ أن تخفَّ «العَجْقَةُ» المتيحةُ لها فرصــةَ البقاءِ مع ذاتِها. وإذ بأمنيتِها تتحققُ عندما قطعَ الطّريقَ مجموعةُ صــبايا وشــبابٌ من «الثُّــوارِ» يحملون الأعلامَ اللّبنانيةَ متجهينَ إلى مطْعَمٍ عَرَفوا بوجودِ سياسيٍّ فيه ممَّن ثاروا ضدَّهم قبلَ أكثرَ من سنةٍ رافعينَ شِعَارَ: «كلُّن يعني كلُّن» بغيةَ محاصــرتِهِ فمُداهمتِهِ لطردِهِ وســطَ غضَبٍ شعبيٍّ متزايدٍ يؤازرهم.

فحوصِرَ المسؤولُ، وصفَّقَ المارَّةُ مشجعينَ ومُطلقينَ هُتافاتِ: «ثورةْ، ثورةْ، ثورةْ»! وسُرْعانَ ما فُتِحَتْ نوافذُ السّياراتِ وهتفَ معظَــمُ مَن فيها- وهي منهم- الهتافَ ذاتَهُ، آملينَ ألا تنحرفَ أهدافُهــا، كما تنبَّأ (جــورج أورويــل) في (حيوانات المزرعة) بانتماءٍ متسلّقينِ إليها.

وظلَّ الصَّــوت يعلو إلى أن انتشرَتِ القوى الأمنيةُ وحَمَتِ السّياسيَّ الهاربَ ماشيًا مشيةً جانبيَّةً كمشيةِ سَرَطانٍ، مخفِضًا

رأسَهُ، متَّكئًا بتَهَيُّبٍ على صدورِ مرافِقيهِ وشبابِ الأمْنِ حتى وصلَ إلى سيارتِهِ التي رُشِقَتْ بالبيْضِ والبندورةِ ثم ما لبثَتْ أن انطلَقَتْ كصاروخٍ.

وبعد أن تفـرّقَ «الثّوارُ» وفتُحَتِ الطّريقُ أمامَ السّـياراتِ، أخذَتْ طريقًا فرعيًّا وعادَتْ نحو «بيروته» هو، إلى أمكنتِهِ هو.

لم تتوقَّفْ طويلًا عند سِـرٍّ تصرّفها هذا، ولم تشأ أن تضيِّعَ الوقتَ في تحليلِه، وإن خطرَ ببالِها أنها إنما تفعلُ ما تفعلُ سـعيًا وراءَ تذكُّرِ تفاصـيلِ قصـتِهما التي مارسَـتْ معها اليومَ لعبةً فاقَتْ قدْرَتَها على التَّوقُّعِ والاسْتيعابِ.

لم تكـنِ «العَجْقـةُ» في أمكنتِـهِ كمـا في الحمـراءِ وقبلها الأشـرفيَّة. وعندما وصلَتْ إلى الكنيسَـةِ التي تقابلُ المسجدَ وسطَ البلد، وكلاهما قد رُمِّمَ بعدَ انتهاءِ الحربِ في التِّسعينياتِ، تمهلَتْ، وأخذَتْ أقصى يمينِها، ثم توقفَتْ في حيِّهِ القديمِ الذي ما زالَ قسـمٌ منه مَهْجورًا، ممزَّقةً جدران بيوتِه كغرابيلَ تشـهدُ علـى جنـونِ القنصِ منـذ بدايـةِ الحربِ عـام 1975 حتى إعلانِ انتهائِها وفق مؤتمرِ الطّائفِ سـنة 1990 على الرُّغْمِ من إزالَةِ كلِّ رُكامِ الأبنيةِ التي شـاهدَتها عندما استضـافَها بعد

أربع سـنواتٍ من انتهاءِ الحربِ- وكانَت هي نفسـها سنواتِ معرفتِهما- بينما بُنِيَتْ بناياتٌ شـاهقةٌ فخمةٌ بجانبِ القسْـمِ المهجـورِ، بانتظارِ التّواصُـلِ مع أصـحابِ البيـوتِ القديمةِ أو ورثتهم، مَن هاجرَ أو هُجِّرَ.

ولم تظلَّ داخلَ السَّيارةِ؛ بل نزلَتْ محاولةً إعادةَ اكتشافِ الماضي الذي مرّتْ عليه ستٌّ وعشرون سنةً، فأومأَتْ بعينيْها النَّابضـتينِ بالإلفَـةِ مُحييّـةً مكانَهُ الذي لم يكـنْ يومًا تجاهَهُ لامباليًا، بل كانَ مُتَحَيِّزًا له، مُنجذبًا إليه، يحميه ويحتمي به، يعانقُـهُ في وعيِهِ وفي لا وعيِهِ، وكأنَّه يصِـرُّ علـى تحقيقِ كاملِ شروطِ الميتافيزيقيا.

وخيـلَ إليهـا أنَّه ينتظرُها هنـا، وأنه هُرِعَ إليهـا- بمجردِ أن رآها- مرحِّبًا بها: «هَلا هَلا، بِهِ بِهَا، بالجَمَالْ!»، مغلِّفًا ابتسامَتَهُ بكل مزايا جوهرِ الدِّفءِ؛ مادًّا لها ذراعَهُ- كما كان يفعلُ من قبلُ- كي تسـتندَ إليها، ليعودَ فيفتحَ أبوابَ ما بقي مُغلَقًا من مقصوراتِه اللّانهائيَّةِ الامتدادِ، مذكِّرًا إياها بما قد تكونُ الأيامُ فكَّكَتْ كثافةَ زمانِهِ وفتَّتَتْه أو كادَتْ، فشـعرَتْ بشـيءٍ الحُبورِ يتسلَّلُ إلى قلبِها.

وتنفسَتْ بعمقٍ، وتذكرتْ- وهي في حضرةِ مُتْحَفِ ذكرياتِه- أنَّ كل أمكنتِه كانتْ مرتبطةً بأسماءِ جيران وأقاربَ وأطفالٍ وشبابٍ تثيرُ لديه ضحكاتٍ متواصلةً طفوليَّةً حينًا، أو وجعًا يصل إلى حدِّ انهمارِ دموعِه حينًا آخرَ، كما انهمرَتْ على صديقِه (طارق) الذي قُنِّصَ أثناء الحربِ الأهليةِ بينما كانا يسيرانِ في حيِّهما معًا، فما سمعَ صوتَ الرَّصاصة، ولا صوتَ أنينِه، ولا رأى دماءً على الرّصيفِ، بل تابعَ طريقَهُ وحدَهُ إلى أن اكتشفَ ما حدثَ.

وما بقيَ له منه إلا تلك السَّاعة التي يصفُها بأنها «الأرخصُ ثمنًا في العالمِ، والأَغْلَى ثمنًا على قلبه!» وهي ساعةٌ ظلَّ يضعُها في مِعْصَمِه سنينَ طويلةً، فلا يسمحُ لأحدٍ- حتى هي- بأن يلمِسَها، إذ سُرعانَ ما يسحَبُ يدَهُ إلى الخلْفِ، ويحضُنُها براحةِ يدِه الثّانيةِ كما تحضُنُ أمٌّ طفلَها المعرَّضَ لخطرٍ داهمٍ!

وتذكرُ الآنَ، قبلَ انهيارِه باكيًا، أنَّ صوتَه بدأ بالتَّهَدُّجِ بعد أن أخبرَها ما حدثَ مع (طارق). وقتَها لم تستطعْ أن تقيِّمَ شعورَهُ تجاهَها، إذ لم يُلَمِّحْ في سنواتِ معرفتِهما الخمسِ الأولى إلى أكثرَ من أنَّه مُعجَبٌ بذكائِها وبقدرتِها الفنِّيةِ على تحويل

أي نصٍّ، حتى لو كانَ فاشلًا في صيغتِهِ الأصليَّةِ أو يشمُلُ في بُنْيتِهِ عُقَدًا أو حوادثَ غير منطقيَّةٍ، إلى مسرحيةٍ نابضَةٍ بالحياةِ، وأنَّه يتوقعُ لها مستقبلًا جيِّدًا إن ثابرَتْ.

ولعلَّها فكَّرَتْ- من وجهةِ نظَرٍ شخصيّةٍ بحْتَةٍ- أنَّه يعتبرُها صديقتَه أو أختَه التي يثِقُ بها، حتى لو لم يقلِّدْها وسامَ الصَّداقَةِ أو الأُخُوَّةِ اللّفْظيَّ الصَّريحَ، وإلا، لماذا يصرُّ على اصطحابِها إلى مواقعِ كَنْزِهِ الثَّمينِ لو لم تكنْ تتبوّأُ إحدى هاتين المنزلتَيْنِ الرَّفيعتَيْنِ؟

واستنادًا إلى وجهةِ نظرِها تلكَ، أحسَّتْ أن عليها أن تساندَهُ في موقفِهِ الموجِعِ من قضيةِ (طارق)، فلفَّتْ- بعدَ تردُّدٍ طالَ- ذراعيْها حولَ رقبتِهِ تواسيه، متوقعَةً أن يسارعَ فيمسح دموعَهُ، شاكرًا تعاطُفَها، مُبْعدًا إياها بلطفٍ، رافضًا ما قد يعتبرُهُ موقفَ ضَعْفٍ. لكنَّها فوجئَتْ بسقوطِ رأسِهِ على كتفِها وبمحاولةِ كبْتِ صَوْتِ بكائِه الذي خرجَ عن سيطرتِه، فتحولَ إلى نحيبٍ، وانتقلَتِ العَدْوى إليها، فبكَتْ لبكائِهِ رُغم محاولاتها الفاشلةِ في البقاء صُلْبةً.

وربما مرَّت دقيقةٌ أو أكثر على هذه الحالِ قبل أن يتراجعَ إلى الخلفِ معتذرًا فرابتًا كتفَها:

- آسف! آسف! لم يكن (طارق) شخصًا عاديًّا في حياتي!

ومسحَ بكمَّيْه وجنَتَيْه المبللتين، ثم سارعَ إلى مغادرةِ المكانِ وكأنَّه يريد مغادرةَ ضربةِ الموْتِ الذي يلاحقُه ويأخذُ منه بشراسةٍ مَن يحبُّ.

ولم تعلِّق بكلمةٍ طوال الطَّريقِ، حتى إنها عجَزَتْ عن التَّفوهِ بحرفٍ عندما أنزلَها عند بابِ بيتِها مكتفيًا بتقديمِ ابتسامةٍ واهنَةٍ عابسةٍ مختزَلَةٍ.

ولما كانَ متفوِّقًا في منحِ مشاعرِه الحزينةِ كلَّ حرَّيّتها، لم يكن غريبًا أن يختفيَ بعد ذلكَ المشهَدِ أيامًا طويلةً ليجيءَ بعدَها إلى مكتبةِ جامعةِ كليةِ التّربيةِ، باحثًا عنها بين الكتبِ حيث اعتادَتْ أن تعدَّ بحثَها، وكانَ منتفخَ الجفنين وكأنه أمضى تلك اللَّيالي بيضاءَ أبعد ما تكونُ عن وصفِها باللَّطيفةِ.

لكن رائحةَ صابونِه المعطَّرِ بعطْرِ قشرِ البرتقالِ المنبعثَةِ من جلده، وقميصَه الأزرقَ المكويَّ بعنايةٍ، وذقنَهُ الحليقةَ، وشعرَه البنّيَّ النّاعمَ اللَّامعَ المربوطَ إلى الخلفِ بعنايةٍ، وهمسَه في أذنِها

خلْفَ عُنقِها أنَّه هنا، كل هذا كان كافيًا أن يطمئنَها أنَّه الآنَ بخير. فلم تشــأ أن تسألَه شــيئًا عن حالِه؛ بل اكتفَت بإزاحة الكرسيِّ الملاصِقِ لكرسيها وهمسَتْ وعيناها ترقبانِ بحذَر أمينةَ المكتبة:

- اجلسْ!

فهمس:

- تعالي نخرجْ من هنا! عندي ســاعة فراغٍ أريد أن أقضيَها معكِ قبل العودةِ إلى مكتبي.

وبســرعةِ الــبرْقِ، جمعَتْ أوراقَها ونهضَــتْ، ولم تردَّ على أمينــةِ المكتبةِ التي يدعوها بـ«الشَّــريرة»، والتي نبَّهَتْها مقطّبةً بصــوتٍ خفيضٍ وهي خارجةٌ: «أنتما تثيران ضجةً دائمًا»، إلا بابتسامةٍ واسعة.

وعلى أحدِ كراســي حديقةِ كلّيّتِها طرحَ سؤالَه ذاتَه الذي لا يَنْتَظرُ عادةً جوابًا له:

- «هل تعرفين»؟

وانتظرَت- كالعادةِ- أن يتكلَّم.

- لا يمكنُ أن تتخيلي معنى أن يصــبحَ إنسانٌ ضاجٌّ بالحياةِ مجردَ جثَّةٍ.

وأطرقَتْ.

كانَتْ تحسُّ أنَّهُ لن يغلقَ موضوعَ (طارقْ) بهذه البساطة، وكانَت سعيدةً أنْ فعلَ، فلعلَّهُ بذلكَ يختصرُ مهلةَ زمن حزنِهِ الأكبرِ. وتابعَ بصوتٍ هادئٍ:

- لا يمكن أن تصبح كلُّ الأحلام والضَّحكات مجردَ ذكريات. الموتُ فكرة صعبة التَّقبُّل، مدهشةٌ، مظلمةٌ، وقاسيةٌ.

وغصَّ:

- كنت أعتقدُ أن موتَ أبي كان أصعبَ ما يمكنُ أن يصيبَ طفلًا، وكنتُ أبحثُ عنه جاهدًا في وجوهِ آباءِ جيراني وزملائي وأقاربي؛ ولكن... كان موتُ (طارقَ) أصعبَ بكثير. أتعرفين لماذا؟ أبي لم أعرفْه؛ بينما (طارق) عرفْتُه، عشْتُ معه، قرأنا معًا الرِّوايات التي كنا نتشاركُ في دفع ثمنِها. أحببتُ شخصيةَ (جو) في (سيدات صغيرات) التي رافقْتنا شهورًا، فكنا نتحدث عنهنَّ وكأنهنَّ جزءٌ من بناتِ جيرانِنا أو قريباتِنا، بينما أَحَبَّ هو (بث)، وبكى وقتَ ماتَتْ بالسِّلِّ، وتوقفَ عن الطَّعام أيامًا.

واتسعَتْ ابتسامتُهُ رغم أن دموعَهُ ترقرقتْ في عينيه، وشدَّ كتفيها بذراعِهِ نحوَه ممازِحًا:

– نعم، يا عزيزتي، نحن، الصّبيان– كما تحبينَ أن تصفينا– عاطفيونَ إلى درجةٍ لا تتوقعْنها!

وأكملَ بصوتٍ خفيضٍ:

– عاطفيـونَ إلى درجةِ نحبُّ فيها بطلاتِ الرّواياتِ، فنفرح لفرحِهنَّ، ونأسى لأوجاعِهنَّ.

وابتسـمَتْ من دون أن تعلّقَ ولو بإشارةٍ إلى أنَّ هذه الرّواية بالذّاتِ قد أثّرتْ بها أيام المراهقةِ أيّما تأثيرٍ، ومثله أحبَّت «جو»، ربما لأنها كانَتْ في صـفاتٍ كثيرةٍ تشـبهُها، فكثـيرًا ما كتبَتْ مسـرحيَّاتٍ بدائيّةً ومثّلَتْها لبناتِ الجيرانِ، وكثيرًا ما سُـرِقَتْ منهـا ومُزِّقَتْ، فبكَتْ، ثم نسـيَتْ ما تعرَّضَـتْ لـه، فكتبَتْ مسـرحياتٍ أخرى أكثرَ نضـجًا وإتقانًا، وإن لم تجد لها طريقًا إلى النّشرِ.

ولم تشأْ أن تقطعَ عليهِ حزنَه، فعادَ إلى (طارق):

– جمعْنا معًا أقساطَ الجامعةِ من عملٍ قمْنا به معًا. اشتغلْت معه نادلًا، جليْت معه الصُّحونَ في المطاعمِ.

خفْنـا أن يرانا أسـاتذتُنا أو إحدى زميلاتِنـا في الجامعة، تمامًـا كما خفْنا أن يعـرفَ الجيرانُ والأقاربُ هنـا أننا نعملُ

كنادلَيْنِ، فقلْنا لهم إننا نعملُ في قسمِ المحاسبةِ في الجامعةِ بدوامٍ جزئيٍّ.

تسللْنا إلى بيتيْنا عند الفجرِ متعبَيْنِ منهَكَينِ لكنْ... ضاحِكَيْنِ. وفجأةً، انتهى كلُّ هذا وصار (طارق) جثةً لم أجرؤْ حتى على البكاءِ عليها خجَلًا من أمِّه التي كانَتْ تبحثُ في عينيَّ- فيما بعدُ- عن ابنِها.

وتنفسَ بسرعةٍ، ثمَّ فكَّ ذراعَه عن كتفيْها:

- لم أجرؤْ حتى على ضمِّها خوفًا عليها من أن تنفجرَ حُزْنًا.

أيُّ شيطانٍ رجيم هذا الذي سرقَ مني (طارق)؟ لا يتضاءَل الوجعُ بمرورِ الوقتِ، بلْ يتفاقَمُ، يتفاقَمُ!

أتعرفين؟ لقد انفتحَتْ هُوَّةٌ تحتَ قدميَّ وقْتَ وجدْتُه على الرَّصيفِ، فهويْتُ بعدها إلى مكانٍ عميقٍ، مُظْلم، بلا قاعٍ، يأبى عليَّ أن أنامَ، يوقظني، ينهَشُ قدميَّ من خلالِ صورةِ كلبٍ كبيرٍ أسودَ لا أعرفُ من أينَ جاءَ.

لا، لم أنسَ (طارق) لأتذكرَهُ الآن؛ فهو يعيشُ معي، ولكن لا يبادلُني الحديثَ ولا تكبُرُ أحلامُهُ كلَّ يومٍ كما

تكبُرُ أحلامي. لقد توقفَتْ أحلامُه بفعلِ رصاصــةٍ! تصوري، توقفَت أحلامُه التي كانت لا تسعُها سماءٌ.

وسكتَ لثوانٍ، ثم قالَ:

– لطالما اعتبرْتُ «أندرســن» قاســيًا عندما تحدثَ للأطفالِ عن تحوُّلِ نبتةِ الكَتَّانِ إلى قُماشــةٍ عتيقةٍ ماتَتْ بمجردِ رميِها في النَّارِ، أو عندما تحدَّثَ عن ذوَبانِ جنديٍّ الرّصــاصِ الصَّــغير مع الرَّاقصــةِ، حتى لو حاولَ تخفيف وجعِ هذه المأساةِ عندما وجدَتِ (البنتُ الصَّــغيرة بائعة الثِّقاب) في الموتِ «مكانًا فيه الجوُّ أكثر صفاءً من النَّهار»!

وصمت للحظةٍ، ثم تساءَلَ ساخِرًا:

– أكثرَ صفاءً؟

ونظرَ إلى وجهِها بعينينِ تحملان الكثيرَ من الحزنِ والصَّدمَة، وكأنه يتلقَّى خبرَ موتِ (طارق) للتَّو، فهرَّبَتْ عينيْها من وجعِه وأطرقَتْ بصــمتٍ، وهي تؤكِّدُ لنفســها قبلَ أن تؤكِّدَ له أنَّه لا بدَّ وأنْ يكونَ أكثرَ صفاءً، وإلا فكيفَ يجمعُ إلى صدرِه أولئكَ الأنقياءَ الذينَ لا يُنسَوْنَ كصديقِهِ وكأبيها الذي تشتاقُهُ الآنَ أكثرَ من أيِّ وقْتٍ مضى.

وخيِّل إليها أنها- إنْ زادَ جملةً أخرى عنه- ستُخْفي وجهَها براحتيْها وتنتحبُ من جديدٍ كما فعلَتْ قبل أيَّامٍ عليهما معًا.

لكنه لم يفعلْ.

فقط تنهـدَ مُنْهيًا كلَّ ما كان عندَه من كلماتٍ يبدو أنه لم يقلْها لأحدٍ سواها، مكررًا اعتذارَه:

- لا أعـرف لمـاذا أخذتُـك إلى أمكنتـي وأقحمتُـكِ في ذكرياتي.

أطرقَتْ مبتسـمةً، فتنشقَ هواءً بملء رئتيْهِ، ثمَّ أطبقَ شفتيه على عبارتِهِ الأخيرة من غير أن يزيد حرفًا واحدًا عليها.

ولم تشـأ أن تقول له إنها- رغـم وجعه الذي انتقلَ إليها- كانت قـد بدأَتْ تتخلص مـن قلقِها تجاهَهُ، فهو- إضـافة إلى ذكائه الذي بدا بالنِّسبة إليها تعويذةً سحريَّةً جذَّابةً- مخلصٌ إلى أبعـدِ حدودِ الإخلاصِ؛ ما يعني أنها لن تحظى بصـديقٍ أفضـلَ ما حييت، هـي التي كان من الصَّـعبِ عليها أن تجدَ شخصًا قريبًا يحملُ صفاتٍ غير عاديةٍ مثله.

(8)

ولم تنتهِ قصة (طارق) هنا، وإنْ أطلقَ عليها عنوانًا آخَر.

فقد استضــافَها بعدَ حواليْ عشرةِ أيام إلى مُتْحَفِ ذكرياته من جديــدٍ. وفي أحَدِ الطّرقاتِ الفرعيةِ من الحيِّ تأبَّطَ ذراعَها وقادَها إلى بيتٍ له شــرفةٌ صــغيرةٌ مربَّعةٌ تطلُّ على الطّريقِ لا تتجاوز مساحتها مترين مربعين. ويغلقُ الحديقة الصَّغيرةَ جدًّا بــابٌ حديديٌّ رُبِطَ قضــيبا درفتَيّ بابِهِ بجِنزيرٍ صــدئٍ أُحكِمَ إغلاقُهُ بقُفْلٍ نحاسيٍّ كبيرٍ.

ووصــلَتْ إليها رائحةُ عَطَنٍ لم يأبَــهْ لها، فقد كانَ ينظرُ إلى تفاصيلِ الجدرانِ مقطبًا. ولما اكتشفَ سلامةَ مصباحِ الشّرفَةِ، التقطَ بدايةَ خيْطِ ذكراهُ، وهمسَ:

– هذا مصباحُ شرفةِ «الأســتاذ». إنْ أضاءَهُ أحدٌ، سينتشرُ النّورُ في الحيِّ كلِّه، بل في العَاصِمَة، بل في لبنانَ.

وشــدَّ يدها لتقفَ قُبَالةَ الشّــرفةِ والمصباحِ، وخلدَ إلى لحظةِ تفكيرٍ قالَ بعدَها:

– هكذا كان يدعوه الجميعُ. ولم يكتفِ بكونه أستاذَ تاريخ، بل كانَ مؤرِّخًا وطنيًّا، يؤرِّخُ الحربَ ساردًا فناقدًا في آنٍ، موجِّهًا نصائحَهُ لا لشبابِ مِنْطَقَة بعينِها؛ بل لكلِّ زاويةٍ من زوايا هذا البلد من أقصى شمالِهِ إلى أقصى جنوبِهِ، مُقنعًا العقلاءَ ومحاولًا أن يقنعَ غيرَ العقلاءِ من خلالِ إخضاعِهِ التّاريخ إلى قواعدِ السّياسةِ وعاداتِنا وتقاليدنا وأدياننا ومقارنًا– في الوقتِ نفسِه– حاضرَنا بماضينا، طالبًا من زعرانِ الشّوارعِ أن يكفوا عن تنفيذِ مخططاتِ هادمي البلدِ من الغرباء المدعومين بالمحليينَ الذين كان يدعوهُم جميعًا بـ«السّاقطين».

وكان ينشرُ آراءَه في بعض الصُّحُفِ الشّبابيّةِ، أو في كتيّباتٍ يوزعُها علينا. ونحن كنا أنا و(طارق) وغيرنا من شبابِ الحيِّ– إيمانًا بفكرِهِ– نوزعُها على المثقفينَ مِن طلّابِ جامعتِنا والمدارس الثّانويةِ. فإن شئتِ أن تصنفيه– حسبَ ابن خلدون– صنِّفتِه من المؤرّخينَ الفحولِ الذين يأخذُ عنهم متطفِّلو المؤرّخين، حاذفينَ جملة هنا ومضيفينَ أخرى هنالكَ، حاشينَ ما تبقى من كلام بأفكارٍ طائفيَّةٍ بغيضَةٍ– غبّ الطّلَبِ– تؤجِّجُ النّفوسَ بدلَ أنْ تعيدَها إلى رُشدِها، فيأخذ عنهم مؤرخو الدّرجةِ

الثّالثةِ ويكررون كالببغاواتِ ما قالَهُ المتطفِّلونَ، غير ممحِّصينَ، بل مساهمينَ بنشر الفتنةِ التي أوصلَتْنا إلى ما أوصلتْنا إليه.

كان- وهو يتحدثُ عنه- يتحدثُ بفخر. وقد بدا واضحًا أن الأستاذَ لم يكنْ في برجٍ عاجيٍّ، والدّليلُ أنّهم كانوا يؤقتونَ بدءَ انبثاقِ النّهارِ بمصباحِ شرفتِهِ التي يقضي فيها وراءَ طاولتِهِ معظمَ شهور السّنةِ إلا حين يهجم البردُ، فيدخل إلى غرفةِ مكتبِهِ، ويستقبل الشّبابَ عنده يريهم إبهامَهُ الممحوَّ من أثر الكتابةِ والمحفورَ مع الأيامِ حتى بدا وكأنّه مشقوقٌ شقًّا طوليًّا وصلَ أو كادَ إلى العظْم.

وبدا موجوعًا وهو يسألها:

- أتعرفينَ ماذا يعني أن يكونَ مفكّرٌ شابٌّ لم يتجاوزِ الخامسةَ والثّلاثين من عمرهِ حينَ اندلعَتِ الحربُ الأهليةُ مفكرًا وطنيًّا علمانيًّا؟ يعني أنه كانَ يفكرُ خارجَ ما تفكرُ به العصاباتُ، ويفكر خارجَ الطّائفيةِ المتحولةِ من دينيةٍ إلى طائفية فسياسيةٍ تخدمُ أصحابَ المصالحِ، فنادى بوقفِ الاقتتالِ، وبأنْ يجتمعَ اللّبنانيون حول «الوطنِ» بعيدًا عن التّحالفاتِ التي تشرذمهم.

وابتسمَ بمرارةٍ وهو يستردُّ ذراعَهُ:

– أتعتقدين، وقد توقفَتِ الحربُ منذ أربع سنواتٍ، أنَّ كلَّ شيء صارَ– بكبسةِ زرٍّ– على ما يرُام؟

ولم ينتظر جوابَها، بل أجاب:

– لم يتوقفِ الجشعُ أو التّشرذمُ ولن يتوقفَ طالما أن اللّاعبينَ هم أنفسهم!

وابتسمَ ابتسامتَهُ الهازئةَ التي يميلُ فمُه فيها إلى جهةٍ أكثرَ من أُخرى، واشتعلَ غضبٌ في عينيه:

– من قرأَ مزاميرَ الأستاذَ؟ طلابُ المدارسِ والجامعاتِ غير المسلّحين ولو بِـ«جِرْبَنْدِيّة»؟ أنا و(طارق) مثلًا؟ مَن قرأ بعقلٍ باردٍ وطنيٍّ مزاميرَ الأستاذِ التي كلّما نشرناها، اشتدَّتِ المعاركُ واحترقَتِ المحاورُ التي تقاسَمَها الشّبابُ، فلم يتَّفقوا إلا على ما تبثُّه الإذاعات المتناحِرة على جانبَي خطوط القتال من أغنياتِ فيروزَ الوطنيّة السَّاعيَة إلى لملمةِ أجزاءِ الوطنِ. وقُتِلَ النّاسُ قنْصًا وخطْفًا وتعذيبًا حتى انطفأَ مصباحُ هذه الشّرفةِ، فتُهومِسَ– في السّبعينيّاتِ– أنَّ رجالًا ملثَّمينَ خطفوهُ وهو عائدٌ من المدرسةِ إلى هذا البيتِ حيثُ تنتظرهُ زوجةٌ شابَّةٌ

وأولادٌ أربعةٌ أكبرُهُم في السّادسـةِ. وتهومِسَ أنّهم خطفوه لأنَّه نادى بالمواطَنَة؛ ولأنه قـالَ «للختيار» الحاملِ مالًا يوزعُهُ بكرَمٍ حاتمـيٍّ على الزُّعمـاءِ ويوزعُ بقاياهُ على المرتزَقَةِ من الشّـبابِ اللُّبنانيينَ الفقـراءِ أن يكفَّ عن التَّفكيرِ بإنشـاءِ جيشٍ على أرضٍ غيرِ أرضـهِ يسـهلُ أن تُضـرَبَ تجمعاتُهُ، داعيًـا إياهُ أن يقاتِلَ عدوَّهُ- إن كانَ صـادقًا في قتالِه الذي يسـميه نضالًا- من خلالِ اعتمادِ خطةِ مجموعةِ «الفدائيين» الذينَ يصـعبُ على عدّوِهِ اصـطيادَهم؛ فخُطِفَ إلى أقبيةِ التّعذيبِ من بابِ الحرصِ والحبِّ والولعِ بالقضـيةِ. وغُطّسَ لأربعينَ يومًا في ماءٍ آسِـنٍ لم نستطعْ نحن- شبابُ الحيِّ الذين قررْنا بعد عشرينَ يومًا لم يغمض لنـا فيه جفنٌ- أن نخطفَ مَن يمكنُ أن نبادلَهُ به، فإذا بـ«رضوى»، الفتاةُ الفلسطينيةُ السّمراءُ الجميلةُ التي لم تكن «فتحاويَّةَ الهوى»؛ بل كانَتْ من أشدِ معجباتِ تفكيرِ الأسـتاذِ، وكانَت تسكنُ في الحيِّ هنا مع أمِّها الجنوبيّةِ، إذا بها تقفُ ضـدَّنا وتجمعُنا في بيتِها، أنا و(طارق) وحوالي عشـرين شـابًّا جامعيًّـا وبعض شـبابِ المراحلِ الأخيرةِ مـن الثّانويةِ، فصرخَتْ في وجوهِنا بغضب: «أتعتقدون أن الأستاذَ سيكونُ

سعيدًا بفعلتِكم هذه؟ أتذهبونَ إلى الخطفِ كما لو كنتم تردّونَ على عضــةِ الكلبِ بعضّةٍ؟ إذن، سيسهلُ على العصاباتِ أن تستقطبَكُم بحجَّةِ مدِّكُم بالرّجالِ والسّلاحِ فالمالِ، وسيقنعُكم زعماؤها بأنكم ستحصُــلون على لقبِ «لبنانيٍّ جيد» تمامًا كما أقنعَ «الختيارُ» الشّبابَ الفلسطينيين بلقبِ «فلسطينيٍّ جيد»؛ وستُســاقونَ مثلما ســيقوا من جامعاتِكم إلى المــوتِ المجّانيّ العبثــيِّ وأنتم تبتســمونَ كالبُلْهِ من دون أن يُســمَحَ لكمْ أن تطرحوا أي ســؤالٍ؛ فأبناءُ الحربِ غيرُ أبناءِ الأكاديميا، محظورٌ عليهم طرحُ الأســئلةِ مــن نوع: لمَ، وكيف، وحتّــامَ، وإلامَ؟ لأن مجــردَ طرحِها سيعرّضُــكم لتُهَمِ التّشــكيكِ بوطنيتِكم المفصَّــلةِ على قياسِــهم وبانتمائكم الذي وضــعوا هم قوانينَهُ التــي يطبّقونها على الخارجينَ عنهــا بطريقتِهم التي لا يمكنُ لخيالِكم- مهما بلغَ من الشّــرِّ- أن يتصــورَ عُنْفَها. إذ لستُمْ- بالنّســبةِ إليهم- إلا مشاريعَ موتٍ، ولدتُمْ كي تموتوا لقاءَ حَفْنةِ شعاراتٍ، مَنْ يخرجْ عنها يعتَبَرْ خادمًا لأعداءِ الوطن.

وارتجفَ، وقد تحــولَ وجهُه إلى مربَدٍّ، ثم جلسَ على حجَرٍ، فجلسَتْ بجانبِهِ صامتةً، ثم سألتْهُ بتلعثمٍ:

- وقتلوه؟

تنفسَ بسرعةٍ:

- اســتطاعَت رضــوى، كما اســتطاعَتْ كبحَ جماحِنا في لقاءاتٍ تشبهُ ذلك اللّقاء، أن تعرفَ أين أُخِذَ، وتصرّفَتْ ببراعةِ مئة شابٍّ «قَبَضَاي»، فأرسلَتْ لهم مَن فاوضَهم أو هدَّدَهم، ولا أعرفُ التّفاصــيلَ ولا أحدَ مــن أهلِ الحيِّ عرفَ؛ إذ تكتَمَتْ عنها تكتُّمًا تامًّا، فهي لم تكن من النّوعِ الاستعراضيِّ، ولكنَّها كانَتْ من النّوعِ الذي يعملُ بصــمتٍ، وخاصَّةً إذا كانَ مؤمنًا بقضــيةٍ عادلةٍ كقضيةِ الأستاذِ، فخرجَ من أقبيةِ التّعذيبِ بعد أربعينَ يومًا، مكســورَ الأسنانِ والأصــابعِ والنّظراتِ والنّفْسِ والقلَمِ، فاقدًا ابتسامتَه الجميلةَ، وقدرتَهُ على الاستمتاعِ بكلِ ما حولَه من صــحفٍ وكتبٍ كانَ ينظرُ إليها بِرِيبَةٍ، فلا يحاولُ حتى الاطّــلاعَ عليها. حتى أغــاني وردة الجزائرية التي كانَ يصــغي إليها وهو يجمعُنا في بيتِه مقدِّمًا لنا الشّايَ والدّروسَ الوطنيةَ قبل خطفِه قائلًا بمرحٍ إنّ صــوتَ وردة أجملُ القضايا وأرقاها، لم يعدْ قادرًا على سماعِه.

فأطرقَــتْ وهي تشــعرُ بالرّثاءِ، وتأملَتْ شــفتيْهِ وهو يخبرُها

بصـوتٍ متهدِّج أنَّه لم تمضِ على خروجِ الأسـتاذِ من محنتِه سـنةٌ حتى اغتالتْه رصاصةٌ لم تستطع رضوى أو غيرها معرفة مصـدرِها، ولكنَّ الأجوبةَ عن سـؤالِ مَن يُعتَقَدُ أنه قد يكونُ الجهـةَ التي أطلقتْهـا- وما أكثرَ الجِزَم العسـكريّة أيامَ الختيارِ وبعدَها- كانَت موحَّدَةً ومغمَّسَةً بالسّفالةِ المحضَةِ: «شرَفٌ لا ندَّعيه»!

ومسـحَ دمعتَهُ، ثم نهضَ شـادًّا كفَها، فمادًّا من جديدٍ لها ذراعَه لتتكئَ عليها:

- لنعُدْ إلى البيتِ!

(9)

- لم تَعُدِ السُّكنى في حيِّنا وفي كلِّ ما تُعورِفَ عليهِ من أماكِنَ أُطلِقَ عليها اسمُ «خطوطِ التّماس» في بيروتَ آمنةً: الأشرفية، والسّوديكو، ورأس النّبع، والبسطة، والمُتحَف، والعدليَّة، ومحمصة صنّين، والطَّيُّونة، وعين الرّمانة والشّياح...

قالَ هذا في رحلتهما التي أسماها: «بيتي»، والتي لم يفصِلْ بينها وبين رحلةٍ ما أسماها «مصباح الأستاذ»، تمامًا كما أسمى الرّحلة التي سبقتْها: «رحلة طارق» سوى أسبوعٍ واحدٍ لحقَ بها فيه إلى مكتبةِ جامعتِها، مستغلًّا غيابَ أمينةِ المكتبةِ «الشَّريرة» في فرصةِ الغداءِ، فساعدَها على لملمةِ مراجعِ الدّكتوراه ومصادرِها للّجوءِ إلى «أمكنته» قبلَ عودتِها، فلمْ تعترضْ رغمَ أنها كانَت قد وزَّعَتْ وقتَها- بصعوبةٍ- بين البحثِ وبينَ تدريبِ طلابِها على مسرحياتِ عيدِ الميلادِ التي يتكاملُ فيها النّصُّ والأغانيَ والموسيقا، ما يتطلبُ المزيدَ من العملِ الجادِّ الذي طالما بقيَتْ في المدرسةِ ساعاتٍ بعدَ

الدّوامِ ومعها أفرادُ الفرقةِ الصّغارُ بعد أن يتناولوا غداءَهم من مناقيشِ الزّعترِ والجبنةِ والكشكِ على كراسي الجمهورِ في القاعةِ الخاويةِ إلا منهم، ويجدونَ- رغمَ عملِهم الشّاقِّ- فرصةً للتَّقافُزِ واللَّعبِ قبلَ العودةِ الى التّدريبِ.

وفي حيِّه، وقفَ شارحًا، لا كخبيرٍ عسكريٍّ، بل كشاهدِ عيانٍ متمرِّسٍ، ما كانَ يجري لتلكَ التي كانَتْ طفلةً لم تتجاوز العاشرةَ وقتَها، والتي اعتقدَتْ- كما أخبرتْهُ مرةً وهي تشرحُ بإيجازٍ وافٍ ظروفَ تهجيرِها وأفراد عائلتها وبلدتها- أنهم ذاهبونَ في «مشوار» كانونيٍّ شديدِ البرودةِ نوقشَ اتِّجاهُهُ أيّامًا طويلةً بين والدَيْها: جنوبًا إلى صيدا برًّا، أو شمالًا إلى بيروتَ- برًّا أو بحرًا- في بواخرِ نقلِ المواشي المنتظِرَةِ على الشّاطئِ والتي يمكنُ رؤيتُها من سطحِ بيتِ جدِّها، استقرَّت بعدَهُ العائلةُ في شارعِ «بدارو» الذي غودِرَ أيضًا من غيرِ أن تُشْرَحَ لها الأسبابُ الأمنيةُ التي كرّسَتْهُ خطَّ تماسٍّ ساخنٍ، في «مشوارٍ» جديدٍ إلى «سن الفيل»، فـ«ضبية»، حيث لم يكنْ لخطوطِ التّماس هذه المرة دَخْلٌ في «مشوارِ» عودَتِها وحدَها مما كان يُسمّى «بالشّرقيةِ»، إلى «الغربيةِ»، حيثُ استأجرَتْ بيتًا

صـغيرًا لا تتجاوزُ مساحتُه أربعينَ مترًا مربعًا في شارعِ الحمراءِ قربَ المدرسةِ التي نالَتْ فيها وظيفةَ التَّدريبِ المَسْرَحيّ لطلابِ المرحلة الابتدائيةِ، وكانت على وشكِ إنهاءِ رسالةِ الماجستير.

ولحقَتْ بها أمُّها وشقيقُها بعدَ انقضاءِ خمسِ سنواتٍ على ما سـمّيَ وقتها بـ«حـرب التّحريرِ» عـام 1990، والتي راحَ والدُها العسكريُّ- مع مئاتِ المدنيين والعسكريين اللُّبنانيينَ- ضـحيةً لها، وإنْ عُلِّقَ على صـدورِ ضـحاياها اسْـمُ «شهيدٍ» خفَّفَ قليلًا من وجعِ الموتِ الـذي تمنَّتْ عائلاتُ مَن خُطِفَ أو اختفـى منهم لو حظيَتْ به بدلَ انتظارِ التَهَمَ المُنتَظِرينَ من غيرِ أن يحظوا ببصيصِ أمَلٍ يدلُّهم على مصيرِ أبنائِهم.

وشرحَ:

- لم تَعُدِ السُّـكنى آمنـةً في هذه الأحياءِ كونها كرَّسَـت المرحلـةَ الأولى مـن الحـربِ الأهليـةِ اللّبنانيّةِ، وهـي مرحلةُ حربِ المدُنِ التي بدأَتْ بعملياتِ خطفٍ عشـوائيَّةٍ، ما لبثَتْ أن ارتبطَتْ برصـاص القنَّاصينَ الذين انتشـروا على أسطُحِ الأبنيـةِ العاليةِ المتحكِّمَـةِ بمداخلِ الطُّرقات، وانتشـرَت بعد ذلك المتاريسُ من أكياسِ رملٍ وأسلاكٍ شائكةٍ.

وكي لا يشتَّ انتباهُها كما يحدُثُ عادةً مع السّيداتِ والآنساتِ اللّواتي يصغينَ في غيرِ ما اهتمام إلى سيَرِ الحربِ التي تحتاجُ عادةً إلى جُهْدٍ عاطفيٍّ مُضْنٍ كما يظنُّ:

- أذكرُ لكِ التّفاصيلَ، أيتها العزيزة جدًّا؛ لأنكِ كنتِ وقْتَها «فِسْتَيْكه» لا تعرفينَ الفرقَ بين «المشوارِ» و«رحلةِ الموْتِ».

فأومأتْ إليه برأسِها وكأنها تدعوه إلى الإكمالِ من حيث توقَّفَ عند «أكياسِ الرَّملِ والأسلاكِ الشَّائكة»، متجاهلةً وصفَهُ لها بـ«الفِسْتَيْكه»، مكرِّسًا اللَّقبَ بالإشارةِ إلى عدم معرفتِها الفرقَ بينَ الاتّجاهُ نحو الحياةِ أو الاندثارِ.

- ولئلَّا تعتقدي أنَّ الخطفَ العشوائيَّ- كما يوحي اسْمُهُ- كانَ عشوائيَّ الهدَفِ، أؤكِّدُ لكِ أنَّه لم يكنْ كذلكَ، بل كانَ خطْفًا استراتيجيًّا؛ إذ إنه وُجِدَ ليثيرَ الخوفَ والشَّكَّ بين النّاسِ؛ ما يعني أنَّ مهمَّتَهُ الرّئيسةَ كانَتْ تفتيتَ الثِّقَةِ؛ إذ لن يثقَ- بسببِهِ- أحدٌ بأحدٍ إلا ضمنَ دائرةِ العائلةِ التي تتَّسعُ لتشْمَلَ الحيَّ فالطَّائفةَ. وهكذا تكتشفينَ أنَّ المطلوبَ منهُ كانَ أنْ يرتبطَ أمنُ المواطنِ بالعائلةِ والحيِّ والطَّائفةِ ليُحكَمَ إغلاقُ الدَّائرةِ بالمتاريسِ والقنْصِ.

وشــدَّ يدَها إلى الطّرقاتِ الفرعيةِ، ثم أشــارَ بسبَّابتِهِ إلى ما يشبهُ الجسرَ الذي قالَ لها إنهم دعوه بـ«جسر القنّاصِ»؛ لأنَّ ضــحاياهُ كانَتْ يوميَّةً بما يوحي بأنَّ القنَّاصَ يقضي نهارَه وليلَهُ من غيرِ أن يغيبَ لحظةً. وكانَ على مَن يريدُ أن يقطعَ من تحتِهِ إلى المقلــبِ الآخرِ حيثُ عملُــهُ ربما أو بيتُهُ، أنْ يقطعَ فوقَ جثةٍ طازجةٍ سواء في طريقِ ذهابِهِ أو إيابِهِ.

وتنهدَ:

– ولئلَّا تعتقدي أيضًــا أن القنّاصَ، كمــا كنا نعتقدُ بدايةَ الحربِ، هو مجردُ قاتلٍ محترفٍ من جماعةِ المُرتَزِقَة، يتقاضــى أجــرًا أو مكافــأةً على عملــهِ، أجزمُ لكِ أنَّ عملَــهُ كانَ– كما الخطفِ العشــوائيِّ– جــزءًا لا يتجزأ من اســتراتيجيةِ حرْبِ المُــدُنِ التي يفترَضُ أن تتحولَ فيها الأحياءُ إلى جبهاتِ قتالٍ لا تلبَــثُ أن «تتطهَّرَ» من رافضــي الحَرْبِ، فتغــادر العائلاتُ حاملةً ما خفَّ وزنُهُ وغلا ثمنُه، إن وُجدَ، إلى حيثُ لا يعلمُ إلا ربّ السّمواتِ متى تعودُ وكيفَ وعلى أيَّةِ قاعدةٍ.

وتابعَ:

– وإثْر كلِّ «تطهيرٍ»، كان يوضَــعُ للمِنْطَقَة نظامُ حُكْمٍ وفْقَ

قوةِ لغةِ الحربِ الوحيدةِ المسموعةِ؛ أي: لغة السِّلاحِ التي يتحدَّثُ بها بطلاقةٍ كلٌّ من الطّرَفِ الإسرائيليِّ الطّامحِ إلى توسُّعٍ زراعيٍّ ومائيٍّ، وربما إلى ثرواتٍ يعرفُ بوجودِها، معرفَةَ (تيودور هرتزل) الذي كتبَ عام 1902 روايةَ (الأرضِ القديمة- الجديدة) بالألمانية، ذاكرًا فيها أن مصادرَ المياهِ هي حدودُ هذه الأرضِ، وأنَّ المؤسسينَ الحقيقيينَ لها هم «مهندسو المياه»، منبِّهًا إيانا- رغمَ إصرارِنا على ألا ننتبهَ- في عنوانٍ فرعيٍّ تحتَ العنوانِ الرَّئيسِ للرّوايةِ هو: «إذا أردْتُم، فإنها ليست خرافة!»، إضافةً إلى طرَفِ جماعةِ «الختيارِ» المتفاعلةِ داخليًّا، وبكثافةٍ، وإلى أطرافٍ عربيَّةٍ أو أجنبيَّةٍ، تمدُّ بسخاءٍ الأطرافَ المتَناحِرَةَ بالسّلاحِ والمالِ، طامحَةً بدورِها إلى تأمينِ موطِئِ قدَمٍ مُستقبليٍّ من خلالِ تلاحمِها مع أطرافٍ داخليَّةٍ «نَطَّاطَةٍ» لم يخلُ تطبيقُ مصالحِها المشتركةُ من أخطاءَ مُرعِبَةٍ لم يكنْ أقلّها - مع تَطّي الحربِ- طرد النّاسِ من بيوتِهم ومناطقِهم، وسدّ أبوابِ أسبابِ العيْشِ وسُبُلِه، وكمّ أفواهِ كلِّ المفكرينَ الرَّافضينَ ما يحدُثُ، عدا عن التَّعامل بضراوةٍ مع كلِّ مَن تُعْتَقَدُ عداوَتُهُ لأربابِ الأمرِ الواقعِ.

وعند هذا الشّـرحِ توقَّـفَ، إذ كانَ عليه- وقد وصـلا إلى يمينِ الطَّريق الرّئيسِ- إلى زاروبٍ ضيّقٍ ينتهي إلى بيتٍ واسعِ الأرجاءِ قالَ إنه بيتُ العَم «أبو صـلاح»، وكانَ محكَمَ إغلاقِ البوابةِ، مهجورًا ومُريبًا ومعروضًا للبيعِ.

ورغم أنه استفاضَ في الحديثِ عن بيوتِ البيارتةِ المتواضعةِ بشـكلٍ عامٍّ، إلا بيوتَ الأثرياء منهم كهذا البيتِ، أشارَ- من خلالِ نافذةٍ مفتوحةٍ فيه- إلى سـقفٍ مدعمٍ بجسورٍ خشبيةٍ، متمنيًا لـو كانَ البابُ مفتوحًـا، إذنْ لأراها فتحـاتِ التَّهوئةِ، و«التَّتختيتـةَ» و«العـرزالَ»، والسّـلَّميْنِ الحجريـينِ الدّاخليَّ والخارجيَّ، و«المَسْـطَبةَ» في نمطها التّقليـديّ، و«الدَّارَ البَرَّانيةَ» والمطبخَ و«المَعْبُورَ» الذي يصِـلُ بين «الـدَّارِ البرَّانيةِ والجوَّانيةِ» وفسحةِ الدَّارِ، وكذلكَ «الإيوانَ والقناطرَ والبوائكَ»، والأخيرةُ تُسـتخدَم- في بعضِ المناطـقِ كدكاكينَ- بينمـا تكون، في الطَّوابقِ الثّانيةِ من المنازلِ البيروتيةِ، بمثابةِ شُـرُفاتٍ مسـقوفةٍ تطلُّ على صحنِ المنزلِ أو الحديقةِ أو الطَّريقِ.

ولكانَ أيضًا أراها بئرَ الماءِ، «والمَنْزُولَ» الذي عرَّفَهُ بأنه بمثابةِ «الصَّالون» في البيوتِ الحديثةِ، طالبًا إليها أن تتأملَ السُّقوف

العاليةَ والشَّبابيكَ الواسعةَ والفتحاتِ الزُّجاجيةَ المرتفعةَ التي بقي بعضُها سـليمًا ليدلها- كما قال- على أن الزُّجاجَ الملوَّنَ كان سائدًا.

وإذ أشارَ إلى «الجنينتين» المشجرتين؛ قالَ بصوتٍ حزينٍ:

- ما عادَت مسابكُ زهور الفلِّ والزَّنبقِ والرِّيحانِ والياسمينِ تملأُ المكانَ عبقًا؛ بل استُبدلَتْ، كما تريْنَ، بالنَّباتاتِ البريَّةِ الشَّائكةِ وبالهواءِ المثقَلِ برائحةِ البارودِ والموتِ لسنواتٍ طويلةٍ، تمامًا كما استُبدِلَ نورُ الشَّمسِ الدَّاخلُ من الأبوابِ والنّوافذِ بأكياسِ الرّملِ اتّقاءَ اختراقِ أدواتِ الموتِ البيوتَ الحيَّةَ.

وانعطفا بينَ الأزقَّةِ التي أصابتْها شيخوخةٌ تئنُّ ألمًا، ثم تقدمَا معًا في الزّاروبِ المشجَّرِ المؤدي إلى بيتِه بخطواتٍ متأنِّيةٍ فوقَ أوراقِ الشَّجَرِ اليابسَةِ الصّفراءِ المائلةِ إلى البنّيِّ؛ فتكسَّرَتْ تحَتَ أقدامهما وصوَّتَتْ، وكادَتْ تتسببُ بتزحلقِها لو لم يسندْها في اللَّحظةِ الأخيرةِ، طالبًا منها التَّمهُّلَ إلى أن تسمَّرَتْ قدماه قُبالةَ البابِ، فرسمَ على شفتيه ابتسامةً مائلةً تسخرُ من معنى الفرحِ الغامرِ الذي ينتابُ المرءَ كلما عادَ إلى

بيتِه أو بيتِ طفولتِه، مشـيرًا إلى لوحة كبيرةٍ وُضِعَ أسفلَها رقمُ هاتفه وقد خُطَّتْ عليها بعنايةٍ كلمةٌ واحدةٌ: «للبيع»!

لم يكـن بيتُه محاطًـا بحديقةٍ، ولم يكنْ واسـعَ الأرجاءِ، ولم يكنْ بـسلالمَ حجريَّةٍ وعرزالٍ وإيوانٍ وقناطرَ وبوائكَ على غرارِ بيت «أبي صـلاح»؛ ولكنْ كانَ بيتًا بمفتاحٍ ما إنْ أدارَهُ في القُفْلِ المغلَقِ، حتى انفتحَ على بيتٍ مَكْلومٍ ودمارٍ فقدَ طزاجَتَهُ فتعايشَ والإهمالَ بما يشبه سلامًا خائرَ القِوى.

وأحسَّـتْ- بمجردِ أن دخلا فانتشرَ صمتٌ عميقٌ ممتَدٌّ سادَ المكانَ- كأنَّ أحدًا سـحبَ بشكلٍ مُباغتٍ ودفعةً واحدةً طاقَةَ مُستضيفِها الحيويةَ التي كانَ يتحدثُ بها قبلَ قليلٍ عند بيتِ «أبي صـلاح» شارحًا تفاصيلَ هندسيَّةٍ في غايةِ الدِّقَّةِ، أو كأنَّ أحدًا أطفأ نورَهُ الدَّاخليَّ، ففرضَ عليهِ طاقَتَهُ السّـلبيةَ في عُقْرِ دارِهِ.

ورغـمَ أنَّ وَجَلًا عمَّ وجْهَه وعينيـهِ أرادَ أن يمحوَهُ ليخرجَها ويخرجَ نفسَهُ من جوِّ الارتباكِ برسمه ابتسامة يُفترَضُ أن تحرِّرَهُ من توتُّـرِهِ، أو على الأقلِّ أن تخفِّضَ هذا التّوتُّرَ، لم تسـتطِعْ أن تكونَ صـمامَ الأمانِ المنشودَ، إذ لم يستطعِ الانطلاقَ ولو

خطـوةً خـارجَ تحفُّظِه، فأخذَ يدَهـا إلى الدَّاخِل ثـم أفلتَها في الصَّالون الصَّغير الذي لم تزدْ مساحتُه عن أربعةِ أمتارٍ مربعةٍ:

– بيتُنا صغيرٌ كما ترين: ثلاثُ غرفٍ ومطبخٌ، ودرجٌ خشبيٌّ يؤدي إلى علِّيَةٍ حُرِمنا من الصُّعودِ إليها لسنواتٍ بسببِ «ابن الكلب» المتَخَفِّي في مكانٍ ما من الضِّـفةِ الأُخرى والمترصِّـدِ ببراعةٍ حركاتِنا.

وتذكَّـرَتْ أنه حدَّثَها مرةً عن تلكَ العلِّيَةِ، وأنَّهُ وجدَّتَه لأمِّه الرُّوسـية الأصـل– التي ورث عنها لونَ عينيْه الخضـراوين وبشـرته النّاصـعة، إلى جانب الخيال الجامح، وعشقِ الفنون من موسـيقا ورسم وأدب ومسـرح– كانا يقطفانِ من شبّاكِها النُّجومَ ويخبئانِها في كيسٍ قُماشيٍّ مُطَرَّزٍ صغيرٍ يُخرجانِها منه عندما تنقطعُ الكهرباءُ، فتضيءُ.

كمـا كانا– على ما تذكـرُ– ينتظران، بشـغَف، ناظرَيْنِ إلى المرتفعـاتِ المقابلَةِ أيضًـا لشـبّاكِ العلّيَّـةِ مرورَ ظَبْـي (الحافرِ الفضّيّ) الذي دُعِيَ بهذا الاسم؛ لأن له حافرًا فضّيًّا في رجلِه الأماميّـةِ اليُمنى، يظهرُ أينما ضـربَ الأرضَـ به حجَرٌ كريمٌ؛ وكلما زادَتِ الضّرباتِ، زادتِ الأحجارُ الكريمةُ.

وأنها- في فتراتِ الانتظارِ الطّويلةِ- كانَتْ تحكي له حكاياتٍ جميلـةً بعضُـها من ألفِ ليلـةٍ وليلةٍ، وبعضُـها من حكايات بلادها البعيدة، وبعضها من بناتِ خيالِها كما يظنُّ.

وقطعَ سـعالُهُ عليها تذَكُّرَها، فعرضَـتْ عليه محرمةً، فقبلَها شـاكِرًا، عازيًا سعالَهُ إلى حساسـيةِ الغُبارِ التي ستزولُ بمجردِ مغادرتِهما.

ثم تحدثَ بإيجازٍ شـديدٍ وبجُمَلٍ قصـيرةٍ ومتقطِّعَةٍ أبعدَ ما تكـونُ عن «السِّـحْرِ الحلالِ» أو«البلاغةِ»، عـن الدَّرَجِ الذي يأخـذُهُ إلى عالمِه فوقُ حيـثُ أفكارُه النّقيَّـةُ ومكتبتُه وأغانيهِ وعُودُ والدِهِ وجدَّتُهُ.

ولم يمانـعْ أن تصـعدَ وحدَها، مفضّـلًا أن يظلَّ تحتُ، على أنْ تزيحَ السّـتائرَ التي تحميها أكياسُ الرّملِ، فارتبكَتْ وآثرَتْ ألا تطيلَ زمنَ انطفاءِ نورِهِ الدّاخليّ فتظهر بمظهرِ الشّـرهةِ إلى اكتشافِ أسرارِه، ما يتنافى وطبعَها.

وارتاحَ أنْ رفضَتْ، فانطلَقَ لسانُهُ، وإنْ بجُمَلٍ بطيئةٍ يفصِلُ بينهَا نَفَسٌ طويلٌ جدًّا، شـارحًا وكأنَّه يجمعُ أفكارَهُ من أمكنةٍ مترامياتِ الأطرافِ تفصلُ بينها جبالٌ شاهقةٌ ووَعِرةٌ:

– في كل بيتٍ هنا متراسٌ أو... أو... أكثر، يقابلُهُ بيْتٌ... هناكَ...بيتٌ هناكَ، هناكَ؛ أي: على الضِّفةِ الأُخرى... مُهَدَّدٌ، مُهَدَّدٌ، بالموتِ أيضًا، و...و...محميٌّ بمتاريسَ لم تستطعْ أن تحميَنا، أو... أو... إنْ شئتِ... أنْ... أنْ تحميَهم من المغادرةِ، المُغادَرَةِ، نعم، أو الغَدْرِ، أو...أو... من كليهما.

وبمجردِ أنْ أنهى كلامَهُ الذي لم ينظرْ خلالَهُ إلى عينيها– ولو لِلُحَيْظَةٍ– أمسكَ يدَها بعدَ أن أغلقَ البابَ واضعًا المفتاحَ في جيبِهِ ريثما يصبحُ في جيبِ متعهِّدٍ ما ينشئ مكانَهُ مشروعًا ما، ضامًّا إليه بيتًا مجاورًا ما، في زمانٍ ما.

ثم غادرا الزَّاروبَ المشجَّرَ الخاويَ نحو الأزقَّةِ، فمدخلِ بنايتِها، تاركًا إياها من دونِ أن تلوحَ على شفتيهِ إلا إشارة صمتٍ مُطْبَقٍ مُحكَمِ الإغلاقِ بمفتاحٍ غير معروضٍ للجمهورِ، متجهًا إلى عُزْلةٍ مركَّزَةٍ جديدةٍ طويلةٍ كعزلةِ راهبٍ أمامَ الرّبِّ، أو طارئة كعزلةِ (رحلةِ طارق)، يخرجُ منها متصالحًا وعزلته، معترفًا بأنَّهُ كانَ في ضيافتِها أيامًا، وخارجًا منها أكثرَ شفافيَّةً وقدرةً على إيحاءِ ابتسامتِه أنه الآنَ «على ما يُرام»!

(10)

وإذ تنفسَت الصُّعَداءَ مع إيحاءِ ابتسامتِه قبل ستٍّ وعشرينَ سنةً أنَّه خرجَ من عزلتِه «على ما يُرام»، لم تستطعْ أن تلمحَ توأم هذه الابتسامةِ صباحَ اليومِ رغمَ ما حقَّقَ من نجاحاتٍ في عملِه في فترةِ غيابِها.

ولم تشأْ أن تناقشَ بينهَا وبينَ نفسِها الآنَ سرَّ اختفاءِ توأم ابتسامةِ «على ما يُرام»، وإنْ كانَتْ تعزو ذلكَ إلى كونِه- كما قالَ- قد فشلَ في تنفيذِ قرارِ إبعادِ طيفِها، ما يعني أنَّ الانكسارَ النّاجمَ عن نجاحِ التّنفيذِ لم يوجَدْ، فلم يستدعِ عزلةً مركّزَةً- طويلةً أو طارئةً- يخرُجُ بعدَها أكثرَ مرونةً في تقبُّلِ القضيةِ المطروحةِ.

وتهرَّبَتْ من فذلكةِ تحليلاتِها بأنْ نظرَتْ حولَها وجلسَتْ على حجَرٍ قريبٍ من الشّارعِ في حيِّه، ربما كانَ أحدَ حجارةِ بيتِه القديمِ الذي لم تستطعْ أن تتبيَّنَ ملامحَ حدودِه العتيقةِ؛ إذ ارتفعَتْ مكانَه بنايةٌ ضخمةٌ ضمَّتْ أكثرَ من أربعةِ بيوتٍ

بجنيناتِها وذكرياتِها وأناسِـها حتى خُيِّـلَ إليهَا الآنَ أنَّ روائحَ طبـخٍ لذيـذٍ مألوفٍ- كحسـاءِ العدَسِ، أو «الشّيشـبَرَك»، أو حلوىً «المفتَّقة» وغيرها وصلَتْ إلى أنفِها للتَّوِّ من مطابخِ أمهاتِ ما قبلَ الحربِ والجدَّاتِ، وقد امتزجَتْ بروائحِ أوراقِ الشَّـجَرِ اليابسَـةِ الصّـفراءِ المائلةِ إلى البنّيِّ أثناءَ مرورهما في الزَّاروبِ المشـجَّرِ الذي اختفى كما اختفى بيتُهُ، كذلكَ برائحةِ عطرِهِ ورائحةِ صـابونِ قشـرِ البرتقالِ الذي يستخدمُهُ واللَّذانِ عانقا رئتيْها بحنانِ اليومَ، فخفقَتْ ذكرياتُها ورسـمَتْ على شفتيْها ابتسامةً أليفةً لا تناقُضَ في أسبابِ وجودِها الآنَ وهنا.

وراحَـتْ تتأملُ الشَّـمسَ التي بدأَتْ تنسـحبُ من كبدِ السَّماءِ، وقد أضـيئَتْ بعض المصابيحِ على مسافةٍ غير بعيدةٍ من الكنيسةِ والمسجدِ.

وشـدَّتْ رداءَها إلى صدرِها وهي تشعرُ بلسعةِ بردٍ، من غيرِ أن يشـجعَها تسلُّلُ نسماتِ تشرين اللّيليّة إلى مغادرةِ المكانِ، فقد كانَتِ الأفكارُ تتسابقُ إلى عقلِها.

وتنهدَتْ بحثًا عن جوابٍ لسـؤالٍ تحوَّل فجأةً من أسخفِ ما يمكنُ أن يُطرَحَ عليها إلى أصعَبِ ما يمكنها أن تجدَ له جوابًا.

فتساءلَتْ:

- كيف تجرّأ ففكرَ بطرحِ إن كانَتْ ما تزالُ تحبه؟

ثم ضحكَتْ ضحكةً تشبِهُ إحدى ضحكاتِه السَّاخرةِ والحزينةِ في آنٍ، أتبعَتها بما يشبه الجوابَ:

وكيف لا يتجرأُ وهو لا يعرفُ أنها لم تجدْ في قصتِهما الطّويلةِ هذه إلا مراحلَ متّصلة من الاسْتمتاعِ بكلماتِ الأغاني وموسيقاها، وبدفءِ الشَّمسِ، وروعةِ صقيعِ الثّلوجِ التي تلسعُ الخدودَ والأنوفَ حتى لو تكادُ تزيلها من أَمكنتها، وبالاستمتاعِ بالهروبِ من الوظيفةِ بحجةِ وفاةِ جارٍ ليتسكَّعا طوالَ النّهارِ من صُورَ إلى طرابلس، يقودُ بمتعةٍ ومن دونِ تعبٍ أو تأفّفٍ، ويتوقفُ عند كل مَعْلَمٍ ليلتقطَ صورًا كثيرةً.

وباستثناءِ الطُّرقِ الجبليَّةِ المتعرِّجةِ الضَّيقةِ والتي لا تتسعُ إلا لمرورِ سيارتِهما التي قد تقعُ في وادٍ سحيقٍ إنْ صادفَ مرورُ سيارةٍ نازلةٍ في الطِّريق نفسِه، فيلحقا حقيقةً بالمرحومِ المزيَّفِ، كان كل شيء في رحلاتهما على مدى سنواتٍ مُرضِيًا.

كذلك فيما يتعلقُ بالاستمتاع بمتابعةِ أفلامٍ ضاحكةٍ أو رومانسية كانا يحضرانِها معًا في دور السّينما والتي تختلفُ

اختلافًا جذريًّا عن تلك المتعلقة بالتَّاريخِ والحروبِ والسّياسةِ والاقتصادِ والمؤامراتِ، والتي أدمنَتْها لثماني سنواتٍ هربًا من حالةِ فراغٍ داخليٍّ قد يؤدي بها إلى أعتابِ مرَضِ الخَواءِ الذي استطاعَتْ عمليًّا أن توقفَهُ عند حدِّهِ زيارةُ المتاحفِ ودُورِ الموسيقا وتكثيف العملِ على كتابةِ أو إعدادِ مسرحياتٍ مدرسيةٍ للأطفالِ وتدريبهم ثم مرافقتهم لعرضِها في القرى والمدن اللّبنانية.

هذا عدا عن تحويلِها وشقيقها الصّالةَ الكبرى المستقلّةَ عن البيتِ، والتي تُسمّى في البلداتِ والقرى اللّبنانية بـ «المضافة»، ولها بابٌ كبيرٌ يؤدي إلى الحديقةِ ويوصلُ- من خلالِ طريقٍ مرصوفٍ طوله أكثرَ من ثلاثةِ أمتارٍ وعرضه ثلاثةُ أمتارٍ وعلى جانبيه أحواضُ نباتِ العِطْرةِ الخضراء في كلِّ الفصولِ- إلى بوابةِ الحديقةِ الرَّئيسةِ لتكونَ قاعةً يعلِّمُ فيها الشّقيقُ البيانو لطلابٍ زاد عددُهم عن خمسةَ عشرَ طالبًا توزعوا حسب برنامجٍ مدروسٍ على أيامِ الأسبوعِ، بما يتناسبُ وأوقاتِهم ومستوياتِهم.

ولم تقف الجَائِحَة عائقًا في وجهِ استمرارِ الدّروسِ؛ بل

زادَ عـددُ الطّلابِ من الصّـغارِ الذين بحـثَ آباؤُهم لهم عن نشاطاتٍ تخرجُهم من حالِ الفراغِ مع إغلاقِ أبوابِ المدارسِ عمليًّا وفتحِها نظريًّا عبر الـ «on line»، وخاصةً بعدَ أن أَقْفلَتِ البلديةُ الملاعبَ خـوفَ انتقالِ العَدْوى إلى الأولادِ؛ فوجدوا في قُـربِ المكانِ ومعرفةِ ابنِ بلدتِهم الـذي يدعونه بـ«الفنان» ضـالَّتَهم. فكانَتْ أصواتُ البيانو تصدَحُ طوالَ النَّهارِ متفاوتةً تفاوُتَ مسـتوياتِ المتدربينَ وأعمارِهم بين مبتدئٍ أو متوسِّطٍ أو قاطعٍ ببراعةٍ أشواطًا بدأها منذ سنواتٍ في المدرسةِ.

ولكنّ هذا لم يعنِ توقُّفَ شَرْحٍ من هنا عبر «الواتس أب»، مُرفَقٍ بعزفٍ يعزفه الأسـتاذُ خارجَ أوقاتِ التّدريبِ، أو اتّصالٍ من هناكَ يُكَرِّرُ فيه لطالبٍ صـعُبَ عليه تطبيقُ ما تعلمَهُ بمجردِ وصـولِهِ إلى بيتِهِ، فكانَ يُسـمَعُ صـوتُهُ يكررُ مراتٍ جملةً من نحو:

C: Do Majeur -> Do Sol Do

Dm: Re Mineur -> Ré La Ré

Gm: Sol Mineur -> Sol Ré Sol

أو غيرها.

كما لم يعنِ هذا قبولَ «الفنانِ» استقبال تلميذٍ فاشلٍ أُجبرَ على تعلُّم الموسيقا لأنَّ «أمَّه متعهدةُ حفلاتِ أعراس» مثلًا، أو قبولَهُ لمجردِ تمضيةِ وقتٍ من غيرِ أن يكلِّفَ نفسَهُ عناءَ التّدرُّبِ في البيتِ؛ فالموسيقا، كما يردِّدُ دائمًا، كما كل فنٍّ، إن لم تُمارَسْ بشغَفٍ مقْتَرِنٍ بتدريبٍ جادٍّ، لن تصلَ إلى مكانٍ.

ولطالما أشارَ بإعجابٍ وفخرٍ إلى تلميذتِهِ «مدام نيفين» السّبعينيَّةِ التي تقاعدَتْ من تعليمِ الرِّياضياتِ وقررَتْ أن تحقِّقَ حلمَها القديمَ في تعلُّمِ العَزْفِ، فنجحَتْ نجاحًا باهرًا وسريعًا بفضلِ شغَفِها ومثابرتِها في حينَ عجَزَ صغارٌ عنِ الوصولِ إلى ربعِ ما وصلَتْ إليهِ.

كذلك فيما يتعلقُ بالاهتمامِ بكل ما يتعلقُ بالحديقةِ، بدءًا بزراعةِ الزُّهورِ، مرورًا بتشذيبِ أغصانِ الأشجارِ المثمرةِ التي تنوعَتْ بين أشجارِ الزّيتونِ والجوافةِ والبابايا والتُّوتِ واللَّيمونِ المزروعةِ من أيامِ الجدِّ، والتي تكفَّلَ «الفنّانُ» بإكمالِ المُهِمَّةِ التي بدأتها شقيقتُه من غيرِ تأفُّفٍ أو شكوى، وذلكَ بمجردِ أن استعادَ قدرتَهُ على المشيِ ولو بشكلٍ محدودٍ والتّفاعُلِ مع مَن وما حوله، حتى إنَّهُ تكفَّلَ بإخراجِ عمَّتِهِ إلى الهواءِ الطَّلْقِ

من غـيرِ أن يتوقَّعَ تحسُّـنًا كبيرًا في حالِهـا، وإن أحسَّ وأختَهُ وأمَّـهُ أنَّ نوبـاتِ الغضـبِ التي مرَّت بهـا في إحدى مراحلِ مرضِـها المرهِقِ قد خفَّتْ بمجردِ تنشُّـقِ الهواءِ ورؤية الشَّمسِ ومراقبةِ ابنةِ أخيها وشقيقِها يبنيانِ بيتًا صُمِّمَ لإيواءِ هرٍّ رماديٍّ هاربٍ من كلبٍّ عضَّ رقبتَه فكادَ يموتُ لو لم تستدعِ الطّبيبَ البيطريَّ من البلدةِ المجاورةِ، فأسـمَياهُ (بوشكين)، نسبةً إلى الشّـاعر الرّوسي الأشـهر الذي جُرِحَ مثلَه أثناءَ مبارَزة له مع المواطنِ الفرنسيِّ (جورج دانتيس)، والذي يُعرفُ أيضًا باسْمِ (دانتي جيكيرن)، وهو ضـابطٌ فرنسـيٌّ يخدُمُ فـوجَ الحرَسِ الخيَّالة، حاولَ إغواءَ زوجةِ الشَّـاعر (ناتاليا بوشكينا)، وإن نجا الهرُّ (بوشكين) من الموتِ، بينما فشلَ أفضلُ أطباءِ روسيا في علاجِ (بوشكين) الأصلي، بمَن فيهم أطباء القَيْصرِ شخصيًّا.

وقد جلبَ وجودُ (بوشـكين) كثيرًا من الهِرَرَةِ التي كانَت قـادرةً على تنظيفِ الحديقةِ من الحشَـراتِ ببراعة، فما كانَت ستسـتغني عنها، رغم أن كلبةَ الحيِّ «قَمَر»، وهو اسْـمٌ أطلقَهُ عليها شـقيقُها، لبشـاعتِها، قد ولـدتْ ثمانيةَ جـراءٍ في أحدِ الأحواضِ البعيدةِ عـن بوابةِ الحديقةِ الحديديةِ، مستضـيفةً

زوجَها (دون كيشوت) الذي أطلقَ شقيقُها أيضًا عليه الاسْمَ نظرًا لاستعدادهِ الدّائم لشنِّ حروبٍ وهميَّةٍ اعتقدَ فيها أنه مُستهْدَفٌ وعائلتَهُ وجراءَهُ بها، وإن لم يقتربْ و(قَمَر) من الهرَرَةِ، ولم يؤذياها- رغمَ محاولةِ (قَمَر) الهجومَ عليها أحيانًا هجومًا استباقيًّا تأديبيًّا عَوائيًّا- وذلكَ لقاءَ تأمينِ طعامِهما فطعامِ الجراءِ ريثما كبرَتْ فوُزِّعَتْ بعد استنفاذِ مدةِ إرضاعِها وتدريبِها على مزارعِ البلدةِ التي تحتاجُ إلى حراسةٍ.

واستُبْعِدَ بعدَها الزَّوجانِ اللَّذان شغلا لسنواتٍ أولادَ الحيِّ، ومن ضمنِهِمْ طلّاب الموسيقا، فقدموا بكرَمِ المساعدةَ لهما وأطعموهما، وإنْ لم يعجبِ الأمرُ جارَهما عازفَ الغيتارِ الذي- إلى كونِهِ لا يرى في صوتِ الكلابِ الأجَشِّ إلا قَطْعَ مُتْعَةِ العزفِ، وخاصَّةً عندما تبدأ نوبةُ حراسةِ الحيِّ ليلًا خوفَ هجومِ اللّصوصِ، كما يعتقدُ (دون كيشوت) وزوجُه، فدفعَ معاشَه الجامعيِّ الشّهريّ لعاملٍ مُياومٍ مقابلَ تخديرِهما ووضعِهما في سيارةٍ كبيرةٍ ونقلِهما إلى أبعدِ بلدةٍ لبنانيةٍ خوفَ عودتهما.

وهذا ما حدثَ، فانقضَتْ بذلك ثلاثُ سنينَ من سنواتِ

الانغماسِ في قضايا سُكنى بيتٍ أرضيٍّ حوله حديقةٌ تعتبرها الهِرَرَةُ ومعها الكلاب بيتًا لها لا تتخلى عنه بسهولةٍ.

وتوقعَتْ أنْ لو لم يصِلْ كتابُه إليها في مدرستِها في ظَرْفٍ ورقيٍّ مختومٍ ومربوطٍ بشريطةٍ حمراءَ عُقِدَ طرفاها على شكلِ وردةٍ، فشكَّلَ حدَثًا جديرًا بالاهتمام يعادلُ ما توقَّعاه من لقائهما اليوم، لكانَت وصلَتْ إلى حدِّ زيارةِ المصانعِ والكَسَّاراتِ وربما المناجِمِ دَرْءًا لخطرِ اجتياحِ هذا الفراغِ القاتلِ المنفَّذِ بقرارٍ لم تعرفْ- ببلاهةٍ- عنه شيئًا، وإنْ كانَتْ تشعرُ في أعماقِها بأنَّ كلمةَ «سعادَةٍ»، قد سُحِبَتْ منها تدريجيًّا إلى درجةٍ صارَتْ حياتُها فيها واقعيَّةً إلى حدِّ السَّماجةِ، خاليَةً من أيِّ خيالٍ مُنعشٍ يوقظُ في قلبِها أدواتِ ما تتواصلُ به معَ الموسيقا والأدبِ والفنِّ، حتى كادَت- لولا هذا الكتابُ الذي أنبأَها فيه أنه ما زالَ على قيدِ الحيويةِ- قد بدأَتْ، وبوجَعٍ لا مثيلَ له، توطِّنُ نفسَها على قبولِ فكرةِ أنها لن تحظى ثانيةً بفرصةِ إشباعِ رغباتِها الإنسانيَّةِ لتصلَ من جديدٍ إلى الرِّضا الرّوحي ونعيمِ التّأملِ فتتجاوز حالَ الغبطةِ، وصولًا إلى استردادِ بعضِ ما ينزلِقُ من بينِ أصابعِها

من سـعادةٍ بدلَ هذا الخَدَرِ الشّـعوريِّ الذي يؤرجِحُها بين اللّا دهشـةِ واللّا ضَـجَرٍ، فتعيش حياةً منقوصةً بكل ما في الكلمةِ من معنًى.

وخشـيَتْ للحظةٍ أن تفقدَ كلَّ هـذا التّفاعلِ الثّريِّ الذي منحَها إياهُ مجردُ وصولِ كتابٍ موقَّعَة صفحته الأولى، ومجردُ إرسـالِ مقالاتٍ، أعادَتْ فتحَ بابِ التَّواصـلِ الاجتماعيِّ لها منذ سـنةٍ موارَبًـا بعد أن أغلقَتْهُ خشـيةَ اقتحـام طيفه عالَمها الواقعيَّ الذي تتدربُ تدرُّبًا عسـيرًا على مُراقصَـتِهِ مُراقَصَةً عَرْجاءَ بعدَ أن انكسرَتْ- بغيابِه- ساقُ خيالِها.

ورغمَ ما لوصولِ مقالاتِه موقعةً باسمِهِ كل صباحٍ إلى شاشةِ هاتفِها من أثرٍ طيّبٍ يطمئنُها أنه بخيرٍ، فقد تغاضَـتْ- عَمْدًا- عن كونِها لا تحملُ دلالةً شخصيَّةً يخصُّها بها هي بالذّاتِ، إذ إنها تصلُ إلى كل أصدقائِه وقرَّائه سواء على «الواتس أب» أو «الفيس بوك» أو «تويتر».

وينطبقُ هذا على العباراتِ المختصَـرَةِ التـي تبادلَتْها معه منذ سـنةٍ، فلم تشأْ أن تطيلَها لئلّا تقعَ في حُفْرة «الأمل» التي قد تَعِدُها وعدًا مزيَّفًا بعودةِ كل ذلكَ الألقِ البهيِّ إلى حياتِها

التي لم تكنْ سهلةً، ولكنَّها – مذ عرفتْهُ– صارَتْ أكثرَ نعومةً، وأكثرَ طُمَأْنينة وجمالًا.

وزفرَت، ثم قالَتْ بصـوتٍ هامسٍ وكأنَّه جالسٌ إلى جانبها، فتخاطبه مسـتدركةً تماديها في وصفِ حياتِها معه، معتذرةً من سوءِ استخدامِها حقّه في «التّعبيرِ المُناقِضِ» الذي لم تنتبه إليه قبل هذا اليوم:

أكثرَ نعومةً وأكثر طُمَأْنينة وجمالًا من وجهةِ نظري طبعًا!

وغصَّتْ بدمعةٍ!

(11)

كيـف تجرّأ ففكرَ بطرحِ سـؤالٍ إن كانَتْ مـا تزال تحبُّه، هو الذي لا يسألُ سؤالًا كهذا عادةً، بل من عادَتِه أن يقدِّمَ تقريرًا سـريعًا، مكثّفًا، حازمًا، جازمًا، يعلنُ فيه كلما التقيا صِدفةً في أي مكانٍ أو تجمُّعٍ معانقًا إياها بشغَفٍ: «ما زلتُ أحبكِ!»، من غيرِ أن يزيدَ قولُه هذا من طمأنينتِها تجاهه؛ لأنَّها أصلًا في ذروةِ الأمانِ.

وبـدونِ أي خضـوعٍ لأية قواعدَ أو أصـولٍ متَّبَعَـةٍ تتعلقُ بالمكانِ والزّمانِ الذي يُصادَفُ وجودُهما فيه، يغادرانِ تاركَيْنِ الجميعَ يتهامسـونَ منتقِدينَ، منطَلِقَيْنِ إلى أماكنَ غير مُخَطَّطٍ لها، يغنّيانِ، ويضحكانِ، أو ربما يبكيانِ، من دونِ أن يخطُرَ ببالِه أن يسألَها عن شعورِها نحوه، ومن دونِ أن تحردَ إن لم يسألْ- وقد حردَتِ اليومَ إذ سـألَ- لأنهمـا معًا يعرفانِ الجوابَ، كما تفترِضُ الآنَ، وليسَتْ بعدَ اليوم بمتأكدةٍ من أي افتراضٍ.

ولأول مرةٍ وهي جالسةٌ وحدَها في حيِّه بعدَ ستٍّ وعشرينَ

سنةً من زيارتِهما معًا هذا المكانَ، تبحثُ له عن مبرراتِ البراءَةِ وكأنَّـهُ ابنُها، متَّقيَةً لسـعاتِ البردِ والظّلام، تحاصـرُها أسـئلةٌ وجوديَّةٌ تعتبرُها مُغرِضَـةً وشريرةً إذ سرعانَ ما قفزَتْ فوقَ ظهرِ الماهيَّةِ وتجاوزَتْها إليها، لتهـزَّ كتفيْها طالبَةً منها أن تجيبَ بحُريَّةٍ مطلَقَـةٍ بما يملأُ وجودَهـا على النَّحْوِ الـذي يلائمُها هيَ لا هو، بعيدًا عن خوفِ هروبِ «لحظاتِ السَّعادةِ والهناءِ والرَّومانسية والأدبِ والفنِّ والموسيقا...»؛ فقد أثبَتتِ التّجربةُ الحَيَّةُ الطّازجةُ اليومَ أنّ ترْكَ مفاتيحِ هذه اللّحظاتِ في جيبِهِ لا يُؤْمَنُ ضـياعُها عن قصْدٍ وتخطيطٍ وتنفيذٍ؛ فهو غيرُ آبِهٍ أصْلًا بما يترتّبُ من آثارِ فقدِها عليها، وبالتّالي، ليسَ عليها أنْ تكونَ أكثرَ حرصًا على ما تترتّبُهُ من نتائجَ عليهِ، وليسَ عليها أنْ تناقشَ ما أدلى به بشـأنِ «القَسْـوةِ» التي واجَهها أثناءَ تطبيقِ قرارِهِ الأُحاديِّ؛ لأنَّ على كلِّ مَن يقرِّرُ وينفّذُ أن يتحملَ تَبِعَاتِ ما فعلَ!

وشـدَّدَتِ الأسـئلةُ الوجوديَّةُ على أن عليْها ألا تشعرَ معَهُ بالتَّعاطـفِ الأموميِّ الذي تظهـرُهُ نحوَهُ، تمامًا كما لم يشـعرْ معَها بكلِّ ما مرَّتْ به بسببِ انسحابِهِ على رؤوسِ أصابعِهِ من حياتِها.

بيدَ أنها استبعَدَتْ تقبُّلَ التّحريضِ الشّريرِ الذي سيوقعُها هي لا هو تحتَ تأثيرٍ سلبيٍّ مُمِضٍّ هي بغنًى عنه الآنَ، مؤثِرَةً أنْ تفكرَ وحدَها بعيدًا عن التّدَخُّلِ وبعيدًا- في الوقتِ نفسِه- عن حَنانِ رومانسيتِها؛ أي: بواقعيَّةٍ مادِّيَّةٍ تطرحُ فكرةَ أنها لم تكنْ لِتشعُرَ ربما بكلِّ هذا الوجعِ لو لم يخبرْها الحقيقةَ عاريةً كما أخبرَها إياها اليومَ. بل تمَنَّتْ للحظةٍ لو اكتفى بتمريرِ الأمرِ تحتَ جملةٍ قد يحبُّها ويستخدمُها عادةً؛ هي: «كنتُ غاطِسًا في الشّغلِ»!

وكانَتْ ستقبَلُ هذا «الغَطْسَ»، وستضمُّ غيابَهُ هذا أيضًا إلى مجموعةِ ما تدعوهُ اصطلاحًا بالمُهَلِ الزّمَنيَّةِ التي مطَّت حتى كادَتْ تنقطعُ، ولن تعتبرَهُ عدوًّا متربِّصًا مُعِدًّا لها- بسرّيَّةٍ تامَّة- ملفًّا مخابراتيًّا يتهمُها فيه بإجبارِهِ على السَّيْرِ في طريقٍ غيرِ مُمَهَّدٍ، بل آيلٍ إلى إسقاطِ السّائرِ عليه في وادٍ لا منجى منه، ما اضطرَها، آسفةً، إلى تنفيذِ عمليةِ اغتيالِ قُبلتِهما الأخيرةِ، والهربِ منها إلى حيث قد تجدُ أجوبةً.

وتنفسَتِ الصُّعَدَاءَ وهي تُحمِّلُ «الحقيقةَ العاريةَ» وِزْرَ ما أصابَها، متجاهلةً غضبَ الأسئلةِ الوجوديةِ التي- إنْ أتاحَتْ

لها فرصةَ التّعبيرِ- فستعتبرُ تفكيرَها هذا هشًّا، حتى لو صنّفَتْهُ، ببراغماتيَّـةٍ، تحتَ عنوان «الواقعيَّةِ المادّيةِ» التي لا تتوافقُ- في كثـيرٍ من الأحيانِ- ومنطقَ تقويمِ العقلِ وتسـديد خُطاهُ نحو طريـقِ الصَّـوابِ فيما يمكـنُ أنَ يُغلَـطَ فيه مـن المعْقولاتِ، وستتهمُها بتناسي وصفِها مُراقصَـة الواقعِ بالمُراقصَةِ العَرجاءِ العسـيرةِ التي كانَتْ تُعوِّلُ على سـاقِ خيالِها، لو لم يُكسَرْ، للانطلاقِ في رقصٍ رشـيقٍ يسيرٍ، لا على ساقِ واقعيَّتِها التي تطالبُ بها الآنَ، مدّعِيَةً اسـتبعادَها رومانسـيتها التي تصلحُ الكلمةُ- المفتاحُ في جملتِه التي «يحبُّها» و«يسـتخدمُها» غطاءً فَضْفاضًا لها؛ إذ «غطَسَتْ» بها إلى أذنيها!

(12)

وعادَتْ إلى سيّارتِها، ثم اتَّجَهَتْ إلى الطّريقِ الرّئيسِ. ولفَتَتْها لوحةُ بائعِ الفلافلِ نفسِه مُضاءةً بأنوارٍ حمراءَ تجذبُ الزّبائنَ من بعيدٍ، وقد جُدِّدَ المحلُّ وإن لم تتوسعْ مساحتُه.

وراقَتْ لها فكرةُ أن تتوقفَ قُبَالَتَه، فابتسَمَت ابتسامةً عريضَةً وهي تنفّذ الفكرةَ. ولما سألَت بائعَ قطَعِ السّياراتِ الذي قالَ إنه يفتحُ حتى التّاسعةِ ليلًا؛ أي إلى ما بعدَ ساعةٍ من الآنَ، إن كانَ بإمكانِها أن تترك السّيارة لعشر دقائقَ ريثما تجلب سندويشة؛ اقتربَ منها، وابتسمَ وهو يرفعُ مساحَتَيّ زجاج سيارتِها، وتأفَّف:

– مسَّاحتا سيّارتِكِ صيفيتانِ متآكلتانِ لا تصلحانِ لأيامِ الشّتاءِ القادمَةِ. أتريدين أن أغيِّرَهما ريثما...

ولم يبذلْ أي جهدٍ لإقناعِها كما يحدُثُ عادةً مع الزّبائنِ، إذ قالَت بحماسٍ:

– غيرْهما!

وقطعَتِ الطّريق.

انتظـرَتْ دورَهـا، وأخـذتْ سندويشـتها، ثم عـادَتْ إلى سيارتِها، وكانَ البائعُ، خلال ربع ساعَةٍ قد استبدلَ المسّاحتين. ولما نقدَتْه ثمنهما، همسَ شاكرًا:

- بَيْعةٌ مسائية. الله يعوِّضْ عليكِ!

وسـمحَ لها، بما أنها قد صـارَتْ زبونتَه، أن تظلَّ واقفةً ريثما تتناولُ طعامَها، فشـكرتْهُ. وتذكرَتْ وجـهَ «أثيرِها» وهو يطلقُ ضـحكةً بعد أن رأى «الطَّرَطُور» على ذقنِهـا منبِّهًا وهو يطلق ضحكته:

- يا جدو الختيار، انتبه إلى ذقنِكَ البَيْضاء!

فابتسَمَتْ!

ثم نفّذَتْ طلبَهُ في إغماضِ عينيها كما أغمضَـتْهما عندما تذوقَتْ شوكولا غنائمِ حربِ الماجستير في المطعم الأزنافوريِّ، محاوِلَةً أن تكتشـفَ، بعد مرور كلِّ تلك السّنواتِ، صِحَّةَ إن كانَ طعمُ الفلافلِ هنا لا يُضاهَى، فتأكدَت!

ومن هناكَ سـارَتْ تبحثُ عن محلِّ (مُنْذِر)، فوجدَتْهُ بعد أن أضاعَتْه مرّتين. فشعرَتْ ببعضِ حُبورٍ.

وتوقفَتْ قربَ بابِه، والتقطَتْ نظراتُها الشّرشفَ الأبيضَ النّاصعَ نفسَه، وكومَ حبَّاتِ البرتقالِ النّظيفة نفسَها، والعصّارة الحديديةَ، ولكنَّ شابًّا صغيرًا قد حلَّ محلَّ (مُنْذِر)، لعلَّهُ حفيدُه، ولم تكنْ لتجزمَ إذ لم تتذكرْ وجْهَ الرّجلِ الأصليَّ.

ونزلَتْ، فطلبَتْ كوبَ عصيرٍ، واكتشفَتْ، بعد مرورِ كل تلك السّنواتِ، صحَّةَ كونه أطيب كوب عصيرٍ.

ولم تكتفِ بتأكيدِ هاتين الحقيقتينِ، بل قادَتْ سيَّارتَها إلى بائعِ الأرز بالحليبِ (نجيب) الذي اختفى من مسرحِ المحل وربما من مسرحِ الحياةِ كلِّها، وإن بقيتْ كؤوسُ حلواه حتى اليوم محافظةً على مكانِها وشكلِها، ولا تعرفُ إن ظلَّتْ كذلكَ فيما يتعلقُ بالطَّعم.

وقبل أن تنزلَ، تذكَّرَتْ أنَّه- عندما استضافَها قبل سنواتٍ طويلةٍ- أخبرَها أسرارَ «روعةِ» الطَّعم، مُحيلًا الرَّوعةَ بدايةً إلى مصدرِ الحليبِ؛ أي: إلى مزرعةِ «أبي حبيبْ» الشَّهيرة للأبقارِ.

وتوقَّفَ عندَ هذه المعلومةِ التي وصفَها بالـ«خطيرةِ»، وسألَها:

- هل تعرفينَ المزرعةَ؟

قالَتْ مستنكرةً السؤّال:

- لا!

فسألها:

- طيبْ، تعرفينَ نبيهَ الذِّكْرِ المدعوَّ بـ«أبي حبيب»؟

- لا!

فضحكَ:

- أنا أيضًا لا أعرفهما!

وضحِكَتْ، ثم استمعَتْ إلى شرحٍ قالَ لها فيه إن نساءَ حيِّهم والأحياءِ المجاورةِ يشترينَ من المزرعةِ الحليبَ لصنع الألبانِ والأجبانِ في بيوتِهنَّ، بينما لا تفكر إحداهُن بصنع «الأرُزّ بالحليب»؛ لأنَّ الأولاد- ببساطةٍ- لن يكملوا أكلَه!

فقد احتكر (نجيب) سرَّ صناعَتِه لسنواتٍ طويلةٍ إلى أن اكتشفَتْه إحدى العَجائزِ من صديقاتِ زوجةِ (نجيب) ذائعِ الصِّيطِ وكشفَتْه، على غرارِ ما تفعلُ النّساءُ عادةً حينَ يحظينَ بسرٍّ، وانتشرَ الخبرُ انتشارَ النَّارِ في الهشيم.

وقْتَها، لمعَتْ عيناه بشدَّةٍ، وقال وهو يقدِّم لها كأسَ «الأرز بالحليب» الزُّجاجيَّ اللّماعَ كأنه كأس كريستال:

– خلافًا للأَرُزِّ المسلوقِ، أو ما يُدعى بالمُفَلفَلِ الّذي يستلزِمُ حبَّـةً طويلةً، والّذي كانتْ خالاتـي وجدتي لأمِّي وجاراتهنَّ يسـتخدمْنَه، كانَ (نجيـب) ينتقـي الأُرُزَّ ذا الحبةِ المسـتديرةِ لتحضـير حلْواهُ. وكانَ يسـلُقه مُسْـبَقًا لبضـعِ دقائقَ في الماءِ المغليِّ، ثم يصفِّيه، ثم يطهوهُ بالحليبِ كالمعتادِ.

ولمـا أرادَتْ أن تتـذوَّقَ ملعقةً منه، ضـربَ بسـبَّابَتِه على ظاهـرِ كفِّها، طالبًا منها أن تغمضَـ عينيها عندما تتذوقُهُ كي يذوبَ في فمِها على مَهَلٍ، على غرارِ عنوانِ حكاية أندرسـن: (أيها الصَّـغير إليـف أغلِقْ عينَكَ). ولما فتحَـتْ عينيها، رأتْهُ ينتظرُ جوابها بفارغِ الصَّبْرِ، فابتسمَت مكتفيةً بالتَّعليقِ بكلمة واحدة:

– لذيذ!

فاستنكرَ:

– فقط؟

قالت متحدِّيَةً وهي تهمسُ في أذنِه لئلا يسمعهما:

– أسـتطيع أن أعطي الوصـفَةَ لعمتي (فريدة)، فتصـنعه بالطَّعْم ذاتِه.

فضحك هامسًا:

- لستِ، يا عزيزتي، بأذكى من زوجةِ صديقِنا (نجيب) التي سرَّبَتْ قصدًا ما سرَّبَتْ، واحتفظَت بسرٍّ أهمَّ بكثيرٍ من سرِّ الأرزِّ المستديرِ، إضافةً إلى ما يعرفُه الجميعُ عن مصدرِ الحليبِ، وهو أن زوجَها كانَ يتركُ الغِطاءَ فوقَ القِدْرِ إلى أن يمتصَّ الأرُزُّ الحليبَ كلَّهُ، عدا عن أنها لم تذكرْ لمخلوقٍ على وجهِ الأرضِ كمية السُّكرِ ولا كميةَ ماء الزَّهر ولا المِسْكَةِ.

فضحكَت وهي تضعُ الكأسَ على راحتِها اليُسرى المفتوحةَ وتتابعُ أكلَها:

- «محتال» صديقُك و«محتالةٌ» زوجتُه أيضًا.

وهمسَ محذّرًا وهو يكتمُ ضحكةً:

- أخفضي صوتَكِ، فقد يجرُّنا إلى المخفرِ بدعوى القَدْحِ والذَّمِّ.

ولما أكملَتْ تناولَ الكأسِ وهي واقفةٌ، وضعَتِ الفارغَ قرب البائعِ شاكرةً، ثم سألَتْ مرافِقَها:

- معقول أن يأكل كلُّ رواد المكانِ حَلواهُمْ واقفينَ؟

فهمسَ كمن يبوحُ بسرٍّ خطيرٍ:

– ليس كلّهم، فباستطاعةِ «المدعوم» من أهلِّ الحي، مثلي مثلًا، أخذَ كأسِه إلى حديقةِ الصَّنوبر العامَّة ليأكلَهُ بتلذُّذ فوق أحدِ المقاعدِ الخشبيةِ الخضراءِ، متأملًا العجائزَ والأَطْفال والأمهاتِ الشّاباتِ من روّادِ الحديقةِ. ولكنَّ الطّامَةَ الكبرى، يا عزيزتي، عندما يقعُ الكأسُ الزّجاجيُّ وينكسرُ.

واستغرَقَتْ في الضَّحِك، متوقعةً أن يكونَ قد تعرَّضَ لموقفٍ كهذا، ولم تستطعْ أن تقنعَهُ بسردِ ما بعدَ الكسرِ، متحدّيًا إياها أن تضعَ ثلاثَةَ سيناريوهاتٍ– بما أنها تعمل في المَسْرَح– تكتشف فيها ما يعانيه الكاسرون وخاصةً من الأَطْفال، طالبًا منها استبعادَ العنْفِ؛ فالمعلمُ (نجيب) يدلِّلُ الأَطْفال إلى درجةِ إفسادِهم أحيانًا. ولم لا وهم يشكّلون أكثر من نصفِ زبائنِه.

وللمرةِ الثّانيةِ في حياتِها، وفي المكانِ نفسِه، تتذوقُ أطيبَ كأسِ أرُزٍّ بالحليبِ!

(13)

لم تعرفْ أين تتجهُ بسيارتِها بعد زيارةِ مقدَّساتِه، والتي منحَتْها شعورًا حيويًّا بالرّضا، ما قلَّلَ من حدَّتِها في التَّعاملِ مع الموضوعِ برُمَّتِه بما يزيدُ عن ستينَ بالمائةِ، خاصة وأنها استطاعَتْ أن تتذكَّرَ تفاصيلَ من حياتِهما معًا ما كانَتْ لتفكِّرَ في استحضارِها على هذا النّحوِ الطّارئِ لولا عملية البحثِ التي أرادَتِ الخروجَ معها من الحياةِ الرّماديَّةِ القادرةِ على كسرِ أكثرِ الأرواحِ نشاطًا وتوْقًا إلى الإمساكِ بخيوطِ الرّجاءِ، والتي أقحمَها هو تدريجيًّا في كهفِ هذا اللَّونِ بانكفائِه الصّامتِ الذي لم تشعرْ- إلا اليومَ- بأنَّهُ انكفاءٌ غير منطقيّ التّبريرِ، مُريبٌ، وإن استبعدَتِ الكلمةَ الأخيرةَ لئلا تَسُوقَها إلى حيث ما لا تطيقُ أن تذهبَ.

ورغمَ أنَّه كانَ من الطّبيعيِّ أن تعودَ إلى ما تسميه «بيت جدي»، خاصَّةً وأنَّ السَّاعةَ تجاوزَتِ العاشرةَ ليلًا؛ إلا أنَّ الفكرةَ لم تَرُقْ لها، ولم يَرُقْ لها أن تعودَ إلى الوجوه ذاتِها:

وجه عمَّتِها (فريدة) الكابي والمحوَّة تعابيره، والهادئ إلى درجة الصَّنَمية وهي في أواخرِ مراحلِ مرضِها، ووجه أمِّها التي ستشيحُ بيدها طالبةً منها الصَّمتَ إذ تنتقلُ من محطةٍ إلى أُخرى تتابعُ تحليلاتِ السّياسةِ المحليَّةِ باهتمامٍ بالغٍ، ووجهِ شقيقِها الغارقِ مستمتعًا- في غرفة الجلوسِ- بقراءاتٍ فلسفيةٍ ولاهوتيةٍ رفيعةٍ وعميقةٍ تضفي على هيئته وتصرفاتِه وفنِّه أيضًا هالةً من الرُّوحانيَّةِ الشّفافةِ العذبةِ التي تنعكسُ على وجهه النّاصع البياضِ وعلى عينيه السّوداوينِ الواسعتينِ وشعرِه النّاعمِ الفاحم الذي أجبره كوفيد 19 على إطالَتِه خوفَ الذّهابِ إلى الحلّاقِ، فبدا أشبهَ بقدّيسٍ نزلَ حديثًا من السّماءِ.

وقادَت سيارتَها فوق الجسرِ الفرعي الذي أعادَها إلى الطِّريقِ البحريِّ الضَّيّقِ، لتنزل إلى مقهى بحريٍّ كبيرِ المساحةِ، نصفُ كراسيه وطاولاتِه الكثيرة مغروسة أرجلها في الرّمالِ، والنّصف الآخَرُ وزّعَتْ في القسم الشَّتويِّ المسقوفة جدرانه الزّجاجية، تملأ رائحةُ القهوةِ زواياهُ، وتُعَدُّ نراجيلَ لمجموعةٍ من الشَّبابِ الجالسينَ خارجًا، ولزوجينِ مع أولادِهما، بينما تتناولُ صبيَّتانِ

مناقيشَ الزّعترِ والجبنِ المشــروحةَ السّاخنةَ إلى جانبِ صحنٍ من الخضــارِ الطّازجةِ والنَّعناعِ الأخضرِ وتتهامسانِ فيما يبدو أنهما تخططانِ لشيْء ما!

وطلبَتْ من النّادلِ أن يقدمَ لها، عند أقربِ طاولةٍ إلى البحرِ في القســمِ الخارجيِّ، ركوةً نُحاســيَّةً من القهــوةِ التّركيةِ من دون هيــل أو سُــكَّر، فثانيةً، فثالثةً...بعــدَ أنْ خلعَتْ حذاءَها باحثــةً بباطنِ قدمْيها، بينَ الرّملِ والمــاءِ الباردَيْنِ، عن القيمةِ الحميميةِ داخلَ وسَــطِها الطّبيعيِّ المُمتَــدِّ بعيدًا وعميقًا، رغمَ إصــرارِ اللّيلِ على تحييدِ كلِّ ما يمكنُ أن يكشــفَهُ الضَّوءُ من ترامي المِساحاتِ.

(14)

ولـو لم يخشَ ذلك «الأَثير» أن تجادلَهُ، كما تفعلُ النّسـاءُ عادةً في حالاتٍ كهذه، حَسْبَ معلوماته عنهنَّ، غير مُهتمَّاتٍ بتوقيـتِ زمـنِ الجـدالِ، سـواءٌ أكانَ في عزِّ الظّهـيرةِ أم بعد منتصـفِ اللَّيل؛ لما أوقفَ سيّارتَه قُبالةَ المحكمَةِ وبيتِ جدِّها، منتظِرًا لحظةَ وصـولِها للاطْمئنانِ عليها ثم المغادرة من غيرِ أن تلمحَهُ.

ولما تصبَّرَ على نظراتِ حارِسَيِّ المحكمةِ اليَقِظَةِ والمتفحِّصةِ والمُرتبِكَـةِ والقـادرةِ- في الوقـتِ نفسـه- على اصْـطيادِ أيِّ «غريـبٍ» يمـرُّ أو يتوقـفُ في هـذه المنْطَقَة المحدودةِ المسـاحَةِ والسُّكانِ، والتي لم يكفَّا عن تسليطِها عليهِ إلا حينَ بدأ المطرُ ينهمرُ، فدخَلا إلى كوخِ الحراسَـةِ، ثم اختفى رأساهما عندما جلَسا لشربِ الشّايِ السَّاخنِ.

وتشاغلَ، ريثما تصلُ، وهو يغلقُ شبَّاكَ سيارته الأيسرَ اتِّقاءَ البلَلِ، بالنَّظرِ إلى الهلالِ في السّماءِ، فبدا له قُرصًا دائريًّا تكوَّنَ

مـعَ جزءٍ من دائرةٍ أُخرى أزيلَتْ من الحافَّةِ، فصـارَ عبارةً عن شـكلٍ مُحاطٍ بأقواسٍ ذاتِ أقطارٍ مختلفةٍ متقاطعةٍ، مستعيدًا للحظاتٍ شيئًا من الهندسةِ المستويةِ.

ثم انصـرَفَ منها إلى تأمُّلِ جمالِ الهلالِ معَ تناثُرِ النّجومِ حولَهُ، فانبثقَ من شـعورِهِ الفنّيِّ ما يشـبِهُ شعورَ «فنسنتْ فان غوخ» عندما رسـمَ لوحةَ «ليلةِ النُّجوم» الزّيتيّةَ التي يُشَكُّ إن كانَ رسمَها ليلًا؛ بل فعلَ ذلكَ من محْضِ خيالِهِ، مضيفًا إلى سمائِها- كعادتِه- رموزَهُ «الفانغوخيَّة».

وعبثًا حاولَ أن يجدَ شـجرةَ سَروِ الفنّانِ المستقيمةَ الباسقةَ في سـماءِ بلدتِهـا، بيدَ أنه وجـدَ أمورًا أحلـى وأبهى؛ فأحالَ جمالَ الهلالِ والنّجومِ ولون السّـماءِ إلى ريشـةِ اللهِ الأحلى من ريشـةِ الإنسـانِ، وإلى رموزِ اللهِ المتناثرةِ ببراعةٍ في صفحةِ السّماءِ والتي هي أكثرُ من أن يُحْصيَها ناقدٌ فنّيٌّ أو متخصِّصٌ في طبيعةِ الطّبيعةِ.

وأضـافَ إلى الإحالةِ الأولى إحالةً ثانيةً هي قُربُهُ من أمكنةِ تلكَ السّـيدةِ التي تخصُّـهما ذكرياتٌ مَحْضٌ لا يشـاركُهُما مخلوقٌ إلا في ظاهِرِها، إذ إن تفاصيلَها محروسَةٌ بالعنايَةِ ذاتِها

التي يتيحُ اللهُ فيها لمُحبِّي الإبداعِ تأمُّلَ وميضِ ماساتِهِ المنثورةِ في السّماءِ الآنَ، ما تركَ في نفسِهِ انطباعًا أليفًا ولَعوبًا في الوقتِ ذاتِهِ، فابتسمَ ابتسامةَ ظفرٍ، مُستفيدًا في تأملاتِهِ غيرِ المُستعجلةِ من خبرتِهِ في عِلْمِ الانتظارِ الذي يبدو وكأنّه مَن وضعَ أصولَهُ وطبَّقَها ببراعةِ كلِّ مُنشِئٍ.

وانتقلَ من السّماءِ إلى تأمُّلِ مرتفعاتِ البلدةِ المحيطةِ بها ليكتشفَ، فجأةً، وجودَ فُنْدُقٍ قريبٍ من مكانِ وقوفِهِ، إذ ومضَتْ بشدَّةٍ أحرفُ Hotel مضاءةً باللّونِ الأخضرِ.

وخطرَت له فكرةٌ تبررُ عدمَ عودتِه إلى بيتِه في بيروتَ في حالِ عُمِلَ بقانونِ الحَجْرِ الذي تهدِّدُ بتطبيقِهِ الحكومةُ مانعةً السَّياراتِ من التّنقلِ بعد الخامسةِ مساءً لأسبوعينِ كاملَيْنِ، متوقِّعةً، معَ تطبيقِه، أن تخفَّ أعدادُ المصابينَ بكورونا، أو- وهذا هو الأرجَحُ حسبَ الحكومةِ التي لا يثقُ الشّعبُ بأيٍّ من توقعاتِها- أن يُعلَنَ لبنانُ، بعد الحَجْرِ، أولَ دولةٍ خاليةٍ تمامًا من هذا الفايروس اللّعين!

وعادَ ليفكِّرَ أنْ لا مانعَ إنْ مدَّدَ إقامَتَهُ في الفندقِ يومينِ أو ثلاثةَ أيامٍ، فلنْ يزعِجَه التّملُّصُ من ضجيجِ حفيديْهِ الجميلينِ

الصّـغيرينِ اللَّذينِ وصلا وأبويهما قبل أسـبوعٍ إلى لبنانَ في زيـارةِ عمَلٍ يعودون بعدَ انتهائها آخرَ الشّـهرِ الحاليّ؛ أي بعد ثلاثةِ أسابيعَ، إلى جورجيا.

كما لن يزعِجَ العائلةَ الشّـابةَ التي ملأَ وجودُها بيتَهُ الفارغَ حياةً وفوضى أن يتوارى «جدّو» مع «اللَّابتوب» الذي يلازمُهُ ويجـبرُه، كلَّما عادَ إلى البيتِ، علـى البحثِ عن زاويةٍ يعملُ فيها بهدوءٍ؛ فلا يجدُ في غمرةِ اجتياحِ الصّغيرينِ كلَّ الأمكنةِ بما فيها غرفة نومِهِ.

وفكَّرَ- إلى جانبِ استحسانه فكرة استعادة هدوئه ووحدته- أن سيكونُ لديهِ مبرِّرٌ سـياحِيٌّ، في زمنِ اللَّاسياحَةِ، يتمشى بموجبِهِ في أرجاءِ بلدتِها مكتشـفًا طرقاتِهـا وزواريبَها وأوديتَها ونهرها، مارًّا ذهابًا وإيابًا قربَ بيتِها متريِّضًا.

وأعجبَتْـهُ الفكـرةُ؛ فتمـادى في خيالِه، وتوقـعَ ألا تمانعَ لو رمى على شـبَّاكِها حجَرًا وفاجأَها بدعوتِها إلى مرافَقتِه مَشيًا، فتضـع تحْتَ تصرّفِه معلوماتِها السّـياحيَّةَ هنا، تمامًا كما فعلَتْ عندما فاجأها في (تونس) قبلَ أكثرَ من اثنتي عشرةَ سنةً، يومَ افتتاحِ مسرحيتِها للأطفالِ: (دِيدون) في قرطاجَ، وكانَتْ أولَ

مسـرحيةٍ للأطفالِ تكتبُها وتخرجُها وتدرِّبُ شخصياتِها بعد أن كانَـت مهمتُها- حتى ذلك اليوم- أكاديميةً تقتصـرُ على شـرحِ تقنيات التَّمثيلِ، أو التَّدريبِ على نصٍّ مكتوبٍ أصلًا، يُحَوَّلُ من نثرٍ أو شعرٍ إلى حوار مسرحيٍّ؛ أي كانَت أولَ إبداعٍ حقيقيٍّ لها.

وكانَـتْ قد وافقَـتْ على تدريسِ مـادةِ مسـرحِ الأَطْفال لسـنتينِ في معهدٍ هناكَ متخصِّـصٍ بعد نيلِهـا الدّكتوراه في الاختصاص نفسِـهِ، دَرّبَتْ خلالهما كثيرًا من فرَقِ المدارسِ الابتدائيَّـةِ- بمثليهـا وطلابِهـا وأسـاتذتها- في هـذا البلـدِ الحضـاريِّ الذي يعطي أكثرَ من غيرِهِ من البلادِ العربيةِ لكلِّ أنواعِ أدبِ الطّفلِ ما يستحقُّ من دلالٍ.

وكانَ- إلى جانـبِ شـوقِهِ إليها الذي امتـدَّ زمنُه إلى قُرابةِ انتهـاءِ عقدِ عملِها- يريـدُ أن يحتفيَ بـولادةِ المبدعَةِ بعد أن احتفى بولادتِها أكاديميًّا في نيْلِ شهادتيْها رغمَ كونِهِ غريبًا عن كليةِ التّربيةِ إلا ما تقاطعَ من رسالتيْها مع اختصاصِهِ.

وإذ كانَ يعتقدُ أنَّ الموهبةَ، كما يقولُ «تشـيخوفها»- الذي يشكّ أنها تحبه أكثر من حبِّها له- في إحدى رسائلِه إلى أخيه:

«هِبَةٌ من السّماءِ قلَّما يحظى بها الآخرون؛ إذ هناك فنانٌ فقط بين كل مليونَي شخصٍ، ما يضعُ هذا الفنّانَ في منزلةٍ خاصَّةٍ تجلِب له احترامَ النّاسِ، حتى لو كانَ ضِفْدعًا أو عنكبوتًا!»، تلا عليها قولَ «تشيخوف» هذا بعدَ عاصفةِ التّصفيقِ التي ملأَتْ فضاءَ المَسْرَح، ولمسِه لمسَ اليدِ إبداعَ المعنى والمَبنى، ناصحًا إياها وهو يسحبُها إلى غرفةٍ نائيَةٍ عن الضَّجيجِ، مُقَدِّمًا لها قلمًا ذهبيًّا حملَه إليها من بيروتَ للمناسبةِ:

– اسمعي يا ضفدعتي الصَّغيرة، أو يا عنكبوتتي التي اَمَنْتُ اليومَ فقطْ بإبداعِها؛ إذ أثارَتْ في مكامنِ أعماقي شعورًا بدهشةِ الخَلْقِ: إن شئْتِ أن تسيري في طريقِ الكتابةِ التي ستكتشفينَ أنها أكثر إمتاعًا من طريقِ الأكاديميا، وإن كانَتِ الأخيرةُ أكثرَ ضمانةً في تأمينِ مصروفِ جيبِك: عليكِ أن تُبقي عينيكِ ثاقبَتَيْنِ، وأذنيكِ ملتقطتيْنِ، وأن تختاري محاوريكِ، على نسَقِ حضرتي مثلًا، من القادرينَ– كأشعةِ الشَّمسِ– على إذابَةِ جليدِ الأفكارِ المُتوارَثةِ؛ فلا إبداعَ من دونِ اختيارِ وجباتِ التّرفِ الذّهنيِّ الذي سيعني لكِ– منذ هذا اليومِ بالذّاتِ– إلغاءَ الحيادِ والخوفِ والكسلِ والتَّعامل مع الأغبياءِ.

وهمسَ:

- وإذ أعلنُكِ اليومَ، بصفتي «الخُنْفشاريةِ» التي لا علاقةَ لها بالأدبِ والنّقْدِ اللذيْنِ لا أعرفُ عنهما شيئًا، وسط هذه الأجواءِ الاحتفاليَّةِ الرّائعةِ والمفاجِئَةِ، مبدِعةً تشقُّ طريقَها بعيدًا عن اقتباسِ نصوصِ جبران خليل جبران، أو روز غريّب، أو الكونتيس دي سيجور، أو حكاياتِ الطّنبوري وغيرِه مما تستخرجينه من كيسِ التّراثِ أو تحويرِ هذه النّصوصِ أو تبديلِها؛ أدعوكِ فورًا إلى الهربِ معي خارجَ القاعةِ بأقصى سرعةٍ!

وبينما تلقَّفَتْ كلماتِه بعينينِ دامعتينِ وهي تعلِّقُ القلمَ في سلسلةٍ ذهبيةٍ رفيعةٍ تتدلى من رقبتِها، ارتجَفَتِ انفعالًا وهما ينسحبانِ بعدَ أن تلقَّتْ تهاني كبارِ الحاضرين من المثقفينَ والفنانينَ وسطَ أجواءِ أوبرا الموسيقار (هنري بورسيل): (ديدو وإينياس) التي ألّفها عام 1688، والتي اختيرَتْ بين أربعينَ أوبرا عالميةٍ أُلِّفَتْ عن (ديدون)، ودُعِمَتْ بتعليقِ نسختينِ مُصوَّرتينِ- على جدرانِ قاعةِ الاستقبالِ المؤديةِ إلى المَسْرَح- من لوحَتَيّ «موتِ ديدون» للفنان الإيطالي (اندريا

ساشـــي)، و«الوليمة» للفنان الفرنســـي (فرانسوا دي تروي)، وبتمثالٍ طِبْق الأصــلِ نحتَهُ أحدُ الفنانينَ التّونسيين الشّباب عن تمثالِ «إليســا» الذي نحتَهُ الفنان الفرنســـي (كريســتوف كوسيه)، والموجودُ في متحف اللّوفر في باريس.

وبدا لهُ واضــحًا أنَّ قصــةَ تخلِّي الأميرِ الفارِسِ الطّروادِيّ (إينياس) المُتَّجِهِ مع أتباعِهِ إلى إيطاليا لإنشــاءِ مدينةٍ جديدة، والنّاجي من حرْب طروادةَ التي شــنَّها (بجماليون) شــقيقُ (ديدون)- ملكةِ قرطاج الجميلةِ- بعد أن هامَا ببعضِــهما حبًّا، قد أثارَتْ مشــاعرَ الفنانِينَ مِن موسيقيينَ وأدباءَ ومسرحيينَ، فوقفَ معظمُهم ضــدَ (إينياسِ) إلى درجةٍ صوَّرهُ فيها الشَّاعرُ الإنجليــزي (كريســتوفر مارلــو) عــام 1585 قزَمًــا في حيــاةِ (ديدون) العِمْلاقَة. بينما أسقطَتِ الكاتبةُ الألمانيةُ (شارلوت فون شــتاين) في (ديدو) عام 1794، جوانبَ من نفسِها على شخصــيَّةِ الملكــةِ المهجورةِ، فقدمَــتْ أحداثًا من ســيرتِها إثْرَ تخلِّــي الأديب الألماني الشَّــهير (غوته) عنها، والذي يشــبه تخلِّي (إينياس) عن (ديدون).

وعلى الرّصــيفِ، قفزَتْ فرَحًا وبكَتْ في الوقتِ ذاتِهِ وهي

تعانقُهُ، وأقسـمَتْ لو أنها كانَتْ تعلمُ أن أولَ مسرحيةٍ تكتبُها ستأتي به إلى حيثُ تكونُ، لكتبَتْها في أول شهرٍ سافرَتْ به، وأقسـمَ- وهما يجلسـانِ في مقهى هادئٍ تملأُ أجواءَهُ موسيقا كلاسيكية لبيتهوفن- أنها كانَت من البراعةِ بمكانٍ استبعدَتْ فيـه (إينياس) من أجواءِ مسـرحيتِها، فلمْ تَبْـكِ- كما فعلَ الجميعُ- بطلَتَها، ولم تضـطّرَ إلى تقزيمِ العاشـقِ؛ إذ لا عاشقَ بقـادرٍ على «حرقِ» الملكَةِ المبجَّلَةِ النّبيلةِ الرّافضـةِ، بعدَ موتِ زوجِهـا، عرضَـ زواجِ الملـكِ البربريِّ (جابـون)، والذي لم يجـدْ- كما قالَ لها مُهَدِّدًا بحرقِ قرطـاجَ إن لم تقبلِ الزّواجَ بـه- أجملَ وأذكى وأكـثرَ إنجازًا منها؛ فأنقـذَتْ مدينتَها من الحرقِ، راميةً بنفسِـها في المحرقةِ ليلةَ زفافِها إخلاصًا لتاريخِها القديمِ والجديدِ.

ولم يعرفْ كيفَ خطرَ ببالِهِ سؤالٌ، فاستوقفَها بقلقٍ:

- هل فكرْتِ يومًا بالكتابةِ للكبارِ؟

فأجابَتْ ببساطة:

- لا!

- هل ستفكرين يومًا؟

أعتقدُ أن الجوابَ هو نفسه. ولستُ متأكدَةً على كلِّ حالٍ، إذ الكتابةُ للصِّغارِ أو الكبارِ ليسَتْ قرارًا.

- أتخافينَ الدّخولَ إلى أعماقِ الحقيقةِ إلى هذه الدَّرجةِ؟

- إلى أيةِ درجَةٍ؟

- إلى درجةِ الاعترافِ مثلًا بأنَّ الملكةَ أحرقَتْ نفسَها عشْقًا لـ(إينياس) الهاربِ كما هربَ (غوتيه) من (شارلوت فون شتاين)؟

وبرمَتْ شفتيها، وبعدَ تفكير لحظاتٍ أجابَتْ:

- على أنني طبعًا، إنْ دخلْتُ مجالَ الكتابةِ للكبارِ، سأفتقدُ (غوتيه) أكثرَ من (إينياس)؛ لأنني لا أعرفُ كثيرًا عن قصصِ حبِّ الملوكِ والأمراءِ والفُرسانِ وعلى أيةِ أسُسٍ تُبنى وكيفَ يمكنُ- مثلًا- لملكةٍ أن تجدَ بديلًا عن مملكتِها المفقودَةِ، بينما يصعُبُ عليها أن تجدَ بديلًا عن حبيبِها، وكلاهما- أقصد الوطنَ والحبيبَ- حبٌّ كبيرٌ، فتجمع بين تناقُضِ بناءِ مدينةٍ وهَدمِ إنسانٍ؛ بينما أستطيعُ أن أفهمَ أكثرَ ربما قصةَ حبٍّ فكريّةً!

- أخبريني من فضلكِ عن سؤالي الذي أطرحُهُ للمرة الثّانيةِ: أتخافينَ الدّخولَ إلى أعماقِ الحقيقةِ؟

- لا أخـافُ، ولكننـي لم أجـرّبِ الاقـترابَ إلى درجـةِ الكتابةِ عن قضيةِ حبٍّ تُناقَشُ بشكلٍ مختَلفٍ عما تناقَشُ به قضـايا الصّغارِ، وأذكّرُكَ أنّ الكتابةَ الأولى للصّغارِ لا تخوّلُني بعـدُ أن أتحدَّثَ في أمورِ أدبِهم، اللَّهمَّ إلا إنِ اعتبرتَ الأكاديميا معرفـةً توازي الإبداعَ، ولا أعتقدُ. ولكنني أجزِمُ أن شخصًـا بإبداع (غوتيه) يُفتَقَدُ بشِدَّةٍ، ولا أقولُ «يُبكى عليه»، فوجودُه في حياةِ أي إنسـانٍ- حتى لو كانَ هذا الإنسـانُ أمَّه- أمرٌ لا يُسـتهانُ به، وغيابُهُ عن حياةِ مبدعةٍ كشـارلوت، أو (لوته)- كمـا كانَ يدعوها- غيـابُ «وجباتِ الـتّرفِ الذّهنيِّ»- كما أسـميتَها قبلَ قليلٍ- والتّعوّدُ على وجباتِ «الرّيجيم» الخاليةِ من الملحِ والسّكّرِ هو تَعَوُّدٌ يؤلِمُ أصحابَ التّذوُّقِ.

واستنتجَ:

- هل أفهمُ من إيرادِكِ فعلَ «يُفتَقَدُ بشدَّة» أنَّكِ ستنضمينَ، لو كتبـتِ للكبارِ يومًا، إلى جوقةِ مُبْدعي جَلْدِ الهاربينَ الذينَ فوجئْـتُ اليـومَ بإجمـاعِ أفرادِها على اعتبارِهـمِ، من خلالِ شخصيةِ المسكين (إينياس)، أوغادًا؟

وتنهدَتْ:

– في الحقيقـةِ، لا أحبُّ الانضـمامَ إلى أيةِ جوقةٍ أولًا، كما لا أحبُّ وصْفَ (إينياس) أو (غوتيه) بالهاربَيْنِ كما وصفتَهُما مُبارِكًا فعلَيْهما، كما بدا لي، أو شامتًا بالسّيدتينِ...

قاطعَها بنَزَقٍ:

– لا، لا، اسمعي!

قالت بنبرةٍ عاليةٍ:

– دعنـي أكمـلْ فكرتي مـن فضـلِكَ. لا تقاطعْني؛ وإلا نسيتُ ما كنتُ أحاولُ أن أوصلَهُ لك.

– تفضلي!

– أحيانًـا، يُسـدِلُ إعجابُنا بشخصـيةٍ اتَّفَـقَ على تبجيلِ صـفاتِها الجميعُ السِّـتارةَ عن محاسنِ الشّخصـيةِ المقابِلَةِ، أو محاسـنِ طريقةِ تفكيرِها أو تصـرّفِها، فنرفضُ الاستماعَ إليها ونرفضُ تفهُّمَهـا، فلا نجدُ وصـفًا أدقَّ من وصـفِ «الخيانةِ»، طالما أنَّ الصّوتَ المخالفَ للأصـواتِ الموالِيَةِ- شئْنا أم أبينا- سيصِـلُ إلى آذاننا محاولًا شـرحَ وجهةِ نظرِهِ، فإنْ صُدَّ وكُتِمَ وَجُوبِهَ، حاولَ «الانسحابَ» أو «النَّجاةَ»؛ لا «الهربَ»، متحملًا برُقِيٍّ تُهَمَ معجبي الشّخصيةِ، أو سادًّا آذانَهُ عما يُفترى عليه.

وخلص من قولِها إلى:

- فهمْتُ أنَّـكِ، إنْ توجهْتِ للكبارِ، لن تتخلي عن موقفِ العدالةِ، ولن تصـفِّقي مع المصـفقينَ، ولن يكـونَ لكِ لوحةٌ أو روايةٌ أو مسـرحيةٌ تمجدُ (ديـدون) وتلعنُ (إينياس)، أو لن تكتبي صارخَةً ضد (غوتيه).

- لن أصرُخَ، ولكنني سأشعرُ بالبردِ، في حالِ (غوتيه)!

أطرقَ:

- كانَ اسـتبعادُ (إينياس) من مسرحيتِكِ، إذن، استبعادًا عادلًا، إذ لم تشائي أن يلعنَهُ الصِّغارُ كما لعنَهُ الكبارُ، فأحَلْتِ اللَّعنـةَ إلى الملكِ (جابون) المصِـرِّ على الـزّواجِ من (ديدون) مرفَقًا- إن لم تقبلْ- بتهديدِ حرقِ (قرطاجَ)، موصِـلَةً رسالَةً مهمَّةً للصّغارِ مفادُها أن إيجادَ «فتاةِ أحلامِ الملكِ» لا يعني أنَّ هذا الملكَ هو «فتـى أحلامِها»؛ ففتى أحلامِها غادرَ على وقْعِ رشْقِهِ بكلِّ أدواتِ الفنِّ من موسيقا ورسْمٍ وكلماتٍ إلى إيطاليا نزولًا عند رغبةِ (جوبيتير) ملكِ الآلهةِ، فحَمَيْتِهِ بإخفائِكِ إياهُ كي لا تؤذيه.

ضحِكَت، ثم حلَّلَتْ:

– هـا إنكَ تمارسُ النّقدَ كمحترِفٍ، وتنبهُني إلى ما لم أفكرْ بـه أثناءَ الكتابةِ، بل فعلْتُ ذلـكَ أثناءَ الإعدادِ لها، فقد أخذَ (إينياسـ)– رغمَ عدمِ ذكرِه في مسـرحيتي– مني الكثيرَ من التّفكيرِ، حتى إني لَأَسـتغربُ أن تكونَ اكتشفْتَ ذلكَ رُغْم أنْ لا دلائلَ تثبتُ أن مُنْشـئةَ النَّصِّ قد مرَّ عليها هذا الاسْـمُ وأخذَ من تفكيرِها ما أخذَ.

وابتسمَ بتواضعٍ:

– في الحقيقـةِ، لم أكـنْ واثقًا من أنَّكِ فكـرتِ بهِ لو لم أرَ حملاتِ التّهجُّمِ على المسـكينِ تنهـالُ عليه من كل حَدْبٍ وصـوبٍ، فقلْتُ: أسألُها، وعلى أساسِ جوابِها أعرفُ إنْ أخذَ حيّزًا منٍ تفكيرِها. وقد اكتشـفْتُ، وفرحْـتُ؛ إذ إنَّ الكاتبَ الحقيقيَّ هو مَنْ لا ينسى من أبطالِ عملِهِ حتى المُغَيَّب.

وفرِحَت:

– أشـكرُكَ إذ وضـعتَني، رغمَ أنني أخطو خطوتي الأولى في الكتابـةِ في مرتبـةِ الكتّـابِ الحقيقيـينَ. كما أشـكرُكَ إذ وضـعتَني في أجواءِ ما قد يُكْتَبُ عن مسـرحيتي، وأشـكرُكَ على إشـعاري بأنني أصـلُحُ محاميةَ دفاعٍ عن (إينياس)، وهو

الأمـيرُ الفارسُ الذي أحبَّ (ديدون) بصـدقٍ فلم يكنْ قزَمًا أو وَغْدًا؛ فقدْ طلبَ منها الزّواجَ فرفضَـتْ نزولًا عند شـروطِ القواعدِ الملَكيَّةِ التي تمنعُ الملكةَ من الزَّواجِ بغيرِ زوجِها الأولِ، فغادرَ إلى إيطاليا مَكْلومًا، تحـتَ عنوانِ تحقيقِ أمنيةِ (جوبيتر) والتي- كما أعتقدُ- لم يكنْ ليأبَهَ بتحقيقِها لو لم يصِـلْ إلى طريقٍ مسـدودٍ مـع محبوبتِه. راجيةً أنْ تعـذِرَ حمايتي له إلى درجةِ إخفائِه عندما تقارنُ بينَ انسـحابِه بصمتٍ وبينَ تشبُّثِ (جابون) بالزّواجِ مُرفَقًا بالتّهديدِ والوعيدِ.

وأحبَّ طريقةَ تفكيرِها، وأعْجِبَ بها أكثرَ، وأتاحَ لها الفرصةَ أن تكملَ، فأكملَتْ:

- كما أشـكرُكَ إذ قلْتَ إنني أصلُحُ أيضًا محاميةَ دفاعٍ عن (غوته) الذي أُحبُّهُ مذ كانَ صـغيرًا- كما قرأتُ عنه- يصغي إلى حكايـاتِ (ألـف ليلة وليلة) على لسـانِ أمِّـه كما كنتَ تصغي إليها على لسانِ جدَّتِكَ، أو يهتمّ بالمَسْرَح مذ تلقّى من جدتِه لعبةَ مسرحِ العرائسِ، فمالَ بسببِها إلى تأليفِ الحواراتِ المَسْرَحيةِ واقتباسِ القصصِ. وأدافِعُ عنه في قضية (لوته) التي عاشَ صراعًا نفسيًّا عنيفًا إذ وقعَ في حبِّها عندما كانَتْ خطيبةَ

أعزِّ أصــدقائِه (يوهان كريستيان كســتنر (Kestner)، وكانَ عليها أن تتوقعَ من رجلٍ بصــفاتِ (غوتــه) النّبيلةِ، أن يختارَ صــديقَهُ من خلالِ روايتِه (آلام فرتر) التي أعتقدُ أنها أنقذَتْهُ من عذابِه.

وشهقَ:

– تعنينَ أنَّهُ تخلّصَ من الحبِّ بالكتابةِ؟

– لم أقل من الحبِّ، بل من سَطْوَةِ وجودِه.

– اشرحي لي من فضلِكِ؛ فأنا لا أستوعبُ نظريتَكِ، وأصلًا لم أقرإِ الرِّوايةَ رغم شهرتِها، وهذا مُعيبٌ بحقّي، وسأفعلُ قريبًا بغرَضِ دراسَتِها، أعدُكِ.

– أينَ سؤالكَ؟

– ســؤالي: لو كنتِ تكتبينَ للكبارِ، لا سمحَ اللهُ ألفَ مرَّة، وأزعجَكِ وجودُ حبي في حياتِكِ...

قاطعَتْه مصحِّحَةً:

– تقصدُ أزعجَتْني سَطْوةُ وجودِ حبِّكَ؟

– نعم!

– سؤالُكَ؟

– هل تكتبينَ عني مسرحيةً وتتخلصينَ من هذه السَّطْوةِ كما فعلَ (غوته) مثلًا؛ فانسحَبَ مبتسِمًا وقد استعادَ صديقَهُ حتى إنَّهُ لم يسمعْ صراخَ (لوته) وبكاءَها من خلالِ (ديدون)؛ بل ربما سمعَ صراخَها غناءً طالما أنَّ ضميرَهُ مرتاحٌ؟

وأعجبَها السَّؤالُ، فأجابَتْ:

– أرسطو يقول «إنَّ الفنَّ تطهيرٌ من كلِّ وجعٍ».

– إذن؟

– قد أفعلُ!

– لكنك قلْتِ إنَّكَ لم تحاولي الكتابةَ للكبارِ، ولنْ!

– لم يكُنْ لديَّ الدّافعُ حتى الآن.

– فإن وُجِدَ؟

– إنْ وُجِدَ؛ انْصَعْتُ.

– جميلٌ جدًّا، ومُطَمْئِنٌ.

– ما هو؟

– انصياعُكِ إنْ.

ضحكَتْ وهي تتأملُ وجهَهُ الذي ثبتَتْهُ بينَ سبابتِها وإبهامِها:

- ما لِلَوْنِكَ قد خُطِفَ؟

وأزاحَ إصبعَيْها عاضًّا أحدَهما، ثم شدَّ يدَها طالبًا إليها ألا يتكلَّما بعدَ اليوم إلا في المِنْطَقَة الآمنة من الأدَب: مِنْطَقَة مسرح الأَطْفال، هامسًا وهو يضحَكُ:

- خُطِفَ لوني ووقعَ قلبي بين رِجلَيَّ، وقالَ: آخْ! واصطَكَّتْ رُكبتايَ وقالَتا: صَكْ صَكْ صَكْ!

وانطلقَا ضاحِكَيْنِ، فساحا معًا، وغنَّيَا مع عازفي الأرصفة، في شارعِ الحبيب بو رقيبة الشَّهيرِ في العَاصِمَة والذي بقي محتفظًا باسمِه حتى بعد إزاحَةِ صاحبِ الاسمِ عن الحكمِ عام 1987، وأحيانًا رقصا.

واستعارَ من أحدِهم عودَهُ بعد أن أزاحَهُ قليلًا عن مقعدِ الرّصيفِ الخشبيِّ، فعزفَ وغنى لمحمد عبد الوهاب، الذي يحبُّه جدًّا، مقطعًا صغيرًا من أغنية «كل ده كان ليه»، لم يبدأْها من أولها- خشيةً على ذوقِ الجمهورِ من الصَّدمةِ السّلبيةِ- كما همسَ في أذنِها ضاحكًا؛ بل من عندِ «غابْ عني بقالو يومين»، فغيَّرها إلى «عامَيْن»، فشهقَتْ بدهشةِ طفلٍ، وضحكَتْ عيناها إعجابًا، ثم همسَتْ في أذنه: «شو

مهضـوم!»، فكرَّرَ المقطـعَ خمسَ مراتٍ في صـيغتِهِ الجديدةِ وهـو ينظرُ في أعمـاقِ عينيْها اللّتين لمعتـا كقطعتينِ من الماسِ الأسـودِ، ثم اختفى لمعانُهما إذ أغمضَتْهما بغيةَ تذوُّقِ اللّحنِ والكلماتِ المُعَدَّلَةِ والصّوتِ.

وأعلنَتْ جـادَّةً وهي تغادرُ معهُ شـاكرَيْنِ صـاحبَ العُودِ وجمهورَ الرّصـيفِ المصـفِّقَ له بحماسٍ أنهـا أحبَّتِ الأغنيةَ بصوتِهِ أكثرَ مما أحبَّتْها بصوتِ عبد الوهاب.

فأطلقَ ضـحكةً عاليـةً ردًّا على مبالغَتِهـا في الثّناءِ، والتي ردَّهـا لا إلى ثقافتِها الفنّيَّة التي لم يغذِّها عيشُـها مع شـقيقٍ فنـانٍ، بل إلى كونِها «مَغْرومَة» به؛ لأنها- إن لم تكن كذلكَ- لاكتشـفَتْ أنه مجردُ هاوي عزفٍ وغنـاءٍ، وأنَّ أخطاءً ارتكبَها أثناءَ الأداءِ غطَّتها بحبٍّ «عَيْنُ رِضاها».

وعبثًا حاولَـتْ إقناعَهُ أنها - رغمَ اعترافِهـا بأنها «مَغْرُومَة» به- فإنَّ صوتَهُ أكثرَ حنانًا، وعزفَه أكثرَ رقَّةً.

ولَّما أصرَّتْ، سـحبَ يدها راكضًـا، فجارَتْه خوفَ أن تقعَ. فاحتسـيا الشّـايَ المختَمِرَ مـع النَّعناعِ الأخضـرِ في المقاهي المزروعَةِ على جوانبِ الأرصـفةِ العريضةِ التي صارَتْ تعرفُها

كلّهـا بحُكْـم إقامتِها الطّويلةِ هنا وتعرفُ حتى أسـماءَ النُّدُلِ فيها مَن يدوامُ منهم نهارًا أو بعد السّادسَـةِ. وتناولا الحلوياتِ المحليَّـةَ، مـن (مَقروضِ القَيْروان) الذي تشـتهرُ به عاصـمةُ الأغالبةِ منذ القدم، أو حلوى (الجلجلانيّة) اللّذيذة.

ثم زارا السُّـوقَ الشّـعبيَّ المسـقوفَ، وإنْ همسَتْ في أُذنِه أن أرضَ سـوقِ صـيدا الشّعبيِّ أكثرَ اسـتواءً من أرضِ هذا السّـوقِ الـذي كادَتْ قدَمُها تعلَقُ أكثرَ من مـرةٍ بينَ حجارةِ الرّصْـفِ المتفاوتَةِ الارتفاعِ، فقدَّمَ لها ذراعَهُ معتبرًا- وهو ينظرُ إليهـا بطرفِ عينيهِ شـاكًّا بنواياها «غيرِ الصَّـافيةِ»- أنها حُجَّةٌ للالْتِصاقِ به.

واشتريا- إلى جانبِ ثوبينِ تقليديينِ تونسيينِ أحدهما رجالي والثَّاني نسائيّ- خَلْخَالًا نسائيًّا فضّيًّا محفورًا عليه باليدِ قالَ إنَّهُ سيُخَشْـخِشُ إنْ عَلِقَتْ رجْلُها بين الحجـارةِ، فيهرع إلى إنقاذِها مهمـا كانَ بعيدًا في السّـوقِ. كما ابتاعا لوحاتٍ زيتيَّةً رسـمَها فنانـونَ محلِّيُّونَ معظمُها موضـوعُهُ يركّزُ على الأبـوابِ الزّرقاءِ والشّـبابيكِ التي تزيِّنُ بيوتَ تونسَ البَيْضاء. وابتاعا نحاسيَّاتٍ تمثِّلُ فنَّ البلادِ وتوقِظُ الحواسَّ بما تجمعُه من إتقانٍ وخيالٍ في آنٍ.

ودُلِّلا كونهما من أبناءِ الأميرةِ الفينيقيةِ «المتشرِّدَة» (ديدون) بانيةِ قرطاج، والمنتشر اسمها في كلِّ شارعٍ، والمُطْلَقِ على كثيرٍ من المدارسِ والمعاهدِ والمكتباتِ والمسارح، بل حتى على أسماءِ بناتِ التّوانسَة.

ثم أويا، لفَجرَيْنِ متتاليَيْنِ، هما مدة إجازتِه، إلى فندقٍ أبيضَ شبابيكُهُ زرقاءُ يغسلُ قدميْهِ بماءِ البحرِ الأبيضِ المتوسطِ النّقيِّ بعدَ أن زارا مدينةَ (توزر) التي أسماها الرّومانَ بهذا الاسمَ، ويعني: مدينة الأحلام وجوهرة الصَّحراء، والتي كرّسَ شهرتَها اسْمُ ابنِها (أبي القاسم الشَّابي)، قائدِ أحلامِ ثوراتِ الشّبابِ العربِ في عالَمٍ تمسكُ بتلابيبِه الدّيكتاتورياتُ.

ورغمَ أن شعورًا بالأسى يحاولُ الآنَ- وهو منتظِرٌ قُبالةَ شبّاكِها- السّيطرَةَ عليه لأنه لم يكُنْ موجودًا في مسرحياتِها التّاليةِ التي كتبَتْها وقدّمَتْها على المسارحِ المحلّيةِ الموجودَةِ منه على مَرْمَى حجرٍ، والتي يؤكِّدُ أنها- في العرضِ الأولِ لكلٍّ منها- كانَت بعينيْها تبحثُ بين الجمهورِ عنه كي يحتفلا، فخذَلَها وتابعَ انكفاءَهُ تاركًا إياها كئيبةً وباهتةً؛ حاولَ إبعادَ كلَّ ما من شأنِه أن يعكّرَ صفوَ وجودِهِ قربَ بيتِها، فغمرَتْهُ

من صَوْبِ غرفتِها عاطفةٌ عَطِرَةٌ، رقيقةٌ، جميلةٌ، سلِسَةٌ، ممزوجةٌ بحنينٍ متدفِّقٍ مُكَثَّفٍ له طابعٌ زمنيٌّ تاريخيٌّ، فأدفأتْهُ، وداعبَتْهُ، وأيقظَتْ ما لم يستيقِظْ من خيالِه بعدُ، فنشِطَ باحثًا عن مزيدٍ من الإشاراتِ التي تربطُه بكلِّ ما يتعلقُ بهذه «الأَعْلَى» المنتَظَرَة والمُبْعَدَة قَسْرًا، متأثِّرًا بوجودِه هنا في محيطِ مركزِ حياتِها وتنفُّسِها وحزنِها وفرحِها وقلبِها وعقلِها.

ومدَّ أصابعَ كفِّه اليُمنى الباردةَ إلى صدرِه فوقَ قلبِه مباشرةً، مسترشِدًا بالخطِّ الطّوليِّ الملموسِ المؤدّي إليه، فاستطاعَ أن يرصُدَ نبْضًا بهيجًا سُرعانَ ما أمدَّ أصابعَهُ بالدّفءِ الذي انتقلَ إلى بقيةِ أجزاءِ جسدِه، ومنه إلى المكانِ الذي توحَّدَ به؛ فتابعَ اكتشافاتِه وقْتَ التفتَ إلى الأضواءِ المزروعةِ ملونةً على الجبلِ خلفَ الفندقِ فيما كانَتْ جدتُه لأمِّه قد أخبرَتْهُ قديمًا على لسانِ جارِ بيتِ أهلِها في وطنِها الأمِّ- العَجُوز الطَّيّب «كوكو فانيا»- أنها خطواتُ ظَبْيِ «الحافرِ الفضّيِّ» الملوَّنة، والتي لا تُرى إلا ليلًا عندما تلمعُ تحتَ ضوءِ الأهِلَّةِ والأقمارِ. أما مَن استطاعَ أن يقطفَ منها حجرًا أو اثنينِ أو أكثر، وتمنّى أمنيةً؛ فسيحققُ الظَّبْيُ له أمنيتَه.

ثمَّ التفتَ إلى قصــرٍ مهجورٍ أُضيءَ سُورُهُ الكبيرُ بينما كانَ معتمًا من الدّاخلِ تمامًا، ولم يعرفْ إن كانَ ضمنَ نطاقِ بلديةِ البلدةِ أو البلدية المجاورةِ لها.

(15)

وعندَ تمامِ الثَّانيةَ عشــرةَ ليلًا، وصلَتْ ســيارتُها في اللَّحظةِ التي أضــيئَتْ على يمينِه شــجرةُ الميلادِ في حديقــةِ البلديَّةِ، والتي لم يُنجَزِ العملُ بالمغارةِ تحتَ أغصانِها بعدُ.

وركَنَتْ ســيارتَها تحت شبّاكِ غرفةِ نومِها، فتركَ على عجَلٍ تأمُّلَ اسْمِ الفندقِ والأحْجارِ الكريمةِ وشجرةِ الميلادِ والمَقروض والجلجلانيّــة وديدون وعبد الوهاب وإينياســ وغوتيه، وتركّزَ اهتمامُهُ كلُّهُ عليها، منتظِرًا تمهُّلَها في النّزولِ، إذ ألقَتْ بجبهتِها على المقودِ لأكثرَ من عشرِ دقائقَ، متمنيةً لو تقضي بقيةَ اللَّيلِ على هذه الحالِ، ما زادَ شعورَهُ بالذَّنْبِ تجاهَها.

وكادَ يتراجَــعُ عــن تطبيقِ قــرارِ الاطمئنانِ على وصــولِها الــذي اتّخذَه وهو متَّجِهٌ إلى بلدتِها أمامَ مشــهدِ جبينِها الذي لم يعهدْهُ مستســلمًا لجاذبيةِ الأرضِ هكــذا حتى في أحلكِ الظّروفِ؛ فأرادَ أن يُسرعَ إليها ويرفعَ ذقنَها ليتسنى له الوصولَ بشفتيه إلى جبينِها فيقبله هامسًا لها:

- أوجعتني!

بل أرادَ- أكثر من أي وقتٍ مضى- أن تصلَ كلماتُهُ إليها:

- تألمتُ، وأعترفُ أنني آلمتُ!

لكنَّـهُ تراجـعَ في اللّحظةِ الأخـيرةِ خوفَ انتباهِ حارسَـيِّ المحكمةِ أو خوفَ ردةِ فعلِها التي لا يتوقعُ كيفَ ستكونُ.

وتساءلَ متخيلًا: كيف ستكونُ ردةُ فعلِها؟

ثم أجابَ نفسَه محاولًا العودةَ إلى الأجواءِ الإيجابيةِ التي كانَت تسيطرُ عليهِ قبلَ مجيئِها:

سـتواجهُني بدايةً بسـؤالٍ: «كيف عرفْـتَ طريقَ بيتي؟»؛ فإنْ أجبْتُها مضـفيًا على صـوتيَ نَبْرَةَ مِزاحٍ: «على أسـاسِ أنَّ بيتَكِ في طوكيو!»؛ ستغضَـبُ، وستعتبرُ- كما علَّموها في كلّيةِ التّربيـةِ- الأجوبةَ غيرَ الجادّةِ في الأوقـاتِ الجادَّةِ نوعٌ من الهُزْءِ غيرِ اللّائقِ. ومع ذلكَ، ستتغاضى عن جوابي، وستكملُ طرحَ أسئلتِها من سـؤالٍ إلى سؤالٍ إلى سؤالٍ وصولًا إلى سؤالٍ عن «مُعْضِلةِ التّقريرِ» الفلسفيَّة التي عجزَ الفلاسفةُ وبعض العُلَماءِ عن حلِّها منذ آلافِ السّـنينَ، طالبةً مني جوابًا فوريًّا. وأنا طبعًا لن أجدَ الجوابَ بهذه السُّـرعةِ، وسوفَ أرتبكُ وأتلعثمُ وأتلكأُ،

وهذا لن يكونَ في مصلحةِ لمِّ شَمْلِ قصَّتِنا التي تواجِهُ- كما يبدو لي من وضْعِ جبينِها وتأخُّرِ وصولِها على غرارِ «سندريللا خانم» إلى منتصفِ اللَّيلِ- منعَطَفًا صَعْبًا يُفَضَّلُ معَهُ «الانتظارُ» خارجَ عربةِ المُغامَرَةِ السَّلبيَّةِ السّائرةِ في ظروفٍ كهذه بلا مكابحَ.

وإذ مرَّ كلبٌ بسرعةِ البرقِ يقطعُ الشّارعَ نحو الوادي خلفَ حديقةِ بيتِ جدِّها؛ أحسَّ بقلقٍ أن تلمحَهُ قبلَ أن تدلِفَ إلى البيتِ.

ولكنه توقَّعَ أنْ لنْ يخطُرَ ببالِها أن ترقُبَ سياراتِ السَّاحةِ التي تغطُّ في نومٍ عميقٍ منذُ ساعاتٍ، كما لن يخطُرَ ببالِها أنَّ أحدًا ينتظرُ خلفَ مقودِهِ وصولَها بعد أن انقطعَ الاتِّصالُ بها بمجردِ أن غادرَتْ مكانَ لقائِهما قبل أكثرَ من تسعِ ساعاتٍ لم يعرفْ أينَ ذهبَتْ فيها!

ولم يحاولْ أن يشتِّتَ تفكيرَهُ بمحاولةِ الإجابةِ عن سؤالِ أين يمكن لامرأةٍ أن تكونَ كلَّ هذه السّاعاتِ.

بل حاولَ استبعادَ تلكَ الفكرةِ الشّريرةِ التي أتاهُ بها شخصُهُ الآخَرُ المعارِضُ الذي جلسَ على المقعدِ المجاورِ لافًّا ساقًا على ساقٍ، ناظرًا إليه نظرةً هازئةً، مواجِهًا إياهُ بحقيقةِ

أنها سـيدةٌ عزبـاءُ، جذّابةٌ، مثقفةٌ، هادئةٌ، عميقـةٌ، قادرةٌ على الإصـغاءِ، والأهم: سيدةٌ لم تحظَ لسنواتٍ بكلمةٍ رقيقةٍ تتوكأُ عليها تسـاعدُها علـى انتظارِ عودةِ المُغَادِرِ بقـرارٍ واثِقٍ مُعاقِبٍ تحت عنوانِ «وعورةِ الطّريقِ».

وغضبَ، وارتفَعَتْ حرارةٌ طارئةٌ إلى رأسِهِ رفضَ أن يسميَها «الغَيْرة»، ورفضَ مقاربَةَ طَرْحِ المُعارِضِ على النَّحْوِ الذي طرحَها فيه، فجابَهَه بأنَّهُ أصـلًا لم يبلّغْها قرارَه هذا وقتَ اتَّخذَهُ؛ كي لا يوجِعَها أولًا، وكي لا يتيحَ لها فرصـةَ البحثِ- وهو متأكدٌ أنها، حتى لو بُلِّغَتْ، لن تبحث- عن بديلٍ.

وإذ لفتَتْه شـهقةُ معارضِـهِ الدَّهِشَـةُ؛ لم يتوقعْ أنه شَـهِقَ بسببِ فعلِ «لا يتيح»؛ بل بسببِ كلمةِ «بديل»؛ إذ يجزمُ أنها لن تجدَ بديلًا عنه.

فـإنِ افْتَرَضَ أنَّه وُجدَ، وأنها ذهبَـتْ إليه وبكَتْ على كتفه اليومَ لسـاعاتٍ طويلةٍ ضـيَّعَها فيها؛ فإنَّه لـن يكونَ إلا بديلًا بشِـعًا- كما كانت تقول جدتُهُ لأبيه الزّحلاويَّـةُ التي أورثَتْه حسَّها الفكاهيّ: «مِثْل خَطِيَّةْ»، ووجهه «كأنو داعِسْ عليه مار مطانوس بحصانه».

سيكون البديلُ مِسْخًا، غبيًّا، كسولًا، مُقَزِّزًا، مُبتَذَلًا، مُحْبِطًا، متغطْرِسًا، متبجِّحًا، بخيلًا، مُزعِجًا يقرُصُ كذبابةِ خَيْل، سمينًا جدًّا، أو نحيلًا جدًّا، طويلًا كمارد، أو قصيرًا ملتصقًا بالأرضِ، ولا يعرفُ شيئًا عن الرَّسْم أو المَسْرَح أو الإبداع أو الأكاديميا أو الموسيقا؛ بل لا يملكُ أُذُنًا موسيقيَّة، وطبعًا لا يتقنُ عَزْف العُودِ، بل لم يفكرْ يومًا بشراءِ عودٍ!

كما لا يعرفُ أينَ يجبُ أن تُعَلَّقَ لوحاتُ بيتِها أو السّتائرُ، أو أينَ توضَعُ الأرائكُ والأسِرَّةُ والمكتباتُ. ولا يتقنُ مفاجأتَها، ولا يجيدُ إضحاكَها، ولا يرتقي إلى مرتبةِ حبيبٍ؛ بل ستُبْقيهِ واقفًا منتظِرًا- على أملِ أن يلينَ قلبُها- على عَتَبَةِ ما تسميه السَّيداتُ احتيالًا، في حالِ رفضِهنَّ شخصًا بهذه الصّفاتِ ريثما يتخلَّصْنَ منه نهائيًّا: صديقًا!

وشعرَ بالرّاحةِ إذ التقطَ هذه الومضةَ؛ فعادَ ليجبَهَ معارِضَهُ:

- لو وُجِدَ، لما لبَّتْ دعوتي صباحَ اليومِ بفرحٍ، ولما رافَقَتْني مهتمَّةً في جولةٍ على تفاصيلِ مكانِ عملي، ولما جلسَتْ قُبالتي تحدِّقُ بي كالمسحورةِ من دونِ أن تطرِفَ بعينيْها عن وجهي، تتلقَّفُ بهما كلَّ جملةٍ أقولها باهتمامٍ بالغٍ، ولَما-

عندما سألتُها إن كانَتْ ما تزالُ تحبُني- ارتبكَتْ وراحَتْ تشرحُ أسبابَ استمرارِ هذا الحبِّ، وكيف لعِبَ الإعجابُ دورَه في... ثم تلعثَمَتْ وسكتَتْ عندما سألتُها جوابًا يتكون من كلمةٍ واحدةٍ، فغيرَتِ الموضوعَ وتحدثَتْ عن جمالِ تسلُّلِ شمسِ تشرينَ الثّاني النَّضِرَةِ من شباكِ غرفتي الكبيرِ! ولَمّا دخَلَتْ أصلًا وقد علَّقَتْ قلميَ «الباركر» في سلسلةِ عنقِها في جوابٍ استباقِيٍّ كانَ عليَّ- لو كنْتُ أكثرَ حَصافَةً- فَهْمَ رمزيَّتِهِ واختصار رحلةِ الأسئلةِ والأجوبةِ.

نعم، نعم، لو وُجِدَ هذا التّافِهِ، كائنًا مَن كانَ، لَما أصغَتْ، ولما غصَّتْ، ولما غضِبَتْ، ولما بادلتني العناقَ بعناقٍ، والقبلةَ بقبلةٍ، ولما انتظرْتُ بقلَقٍ طيلةَ اليوم أن تفتحَ هاتفَها الحَرْدانَ، ولما كنتُ تكلّفْتُ عناءَ المجيءِ حيثُ تقيمُ، ولما كنتُ أنتظرُها هنا تحتَ المطرِ.

بل ربما كنا اكتفينا بلقاءٍ في مقهًى على الرّصيفِ رُوّادُه من المراهقينَ الحاملينَ معهم أينما ذهبوا كلَّ أدواتِهم التّكنولوجيّةِ، أو في مقهى مفتوحٍ في «مولْ»: السّوبر ماركِتْ التي تنبعثُ منها رائحةُ السّمَكِ المقليِّ من أمامِنا ومحلُّ بيعِ أحذيةٍ من ورائِنا.

وكنّا تحدثنا- من ضمنِ موضوعاتِ اقتصادِنا اللّبنانيِّ المنهارِ الذي يلعبُ فيه الدّورَ الشّريرَ الغامضَ- تحالفُ معظمِ رجالِ الدّينِ وعلمائِه بدءًا من سنة 1920 مع قادةِ السّياسةِ، داعمينَ إياهم طائفيًّا ومذهبيًّا، لا دينيًّا، فيما كوَّنَ «شبكةَ سُلْطةٍ سياسيَّةٍ» تستغلُّ البلدَ وناسَه وخيراتِه ما سيدفعُ بمقاومتِه الشّعبيةِ إلى أنْ تصبحَ أكثرَ فظاظةً وضراوةً، وصولًا إلى كورونا وعلاقتها بـ«جحيم» (دان براون) المتنبئِ بمؤامرةِ منظمةِ الصّحةِ العالمية على نسْلِ البشَرِ؛ نعم، كنا تحدثْنا عن حبِّنا- إنْ تذكَّرْنا- وكأنه ماضٍ عذبٌ، لطيفٌ، مُتَنَاءٍ، فمندثِرٌ.

(16)

وما إن سـمعَ خشخشـةَ مفاتيحِها، ورآهـا تدخلُ من بابِ حديقةِ بيتِ جدِّها لتتسللَ على رؤوسِ أصابعِها خشْيةَ إيقاظِ أمِّها أو شقيقِها، وصولًا إلى غرفتِها التي أضيئَتْ فجأةً، فلاحَتْ له قصيدَتُه النُّحاسيةُ معلَّقةً على الجدارِ المقابلِ لشبّاكِها، حتى خفقَ قلبُهُ حَمْدًا وفرَحًا، وابتسمَ ابتسامةً عريضةً واثقةً ومتألقةً ورقيقةً وسعيدةً في آنٍ.

وسمِعَ على الأثرِ صوتَ ماءٍ يتدفَّقُ، فتوقَّعَ أنها تأخذُ حمَّامًا دافئًـا طويلًا، تعودُ بعدَه إلى سـريرِها المسـتندِ إلى ما يدعوانه عادةً بـ«جدارِ القصيدةِ»، ثم تتكورُ تحت لحافٍ سميكٍ معطَّرٍ بعطرِهـا الـذي لم تغيرْهُ مذ اختـاره لها أول مـرةٍ قبل ثلاثة عقود، وفوقَه بطّانيةٌ صـوفيَّةٌ سـميكةٌ أيضًـا لا تصلحُ إلا لبردِ شـهرِ شباطَ، وسترتجفُ- رغمَ ذلكَ- ككائنٍ لم يدرِ إلّا الآنَ أنَّهُ كانَ متروكًا منذ زمنٍ ليسَ بالقصيرِ ليجابهَ وحدَهُ قدَرَه!

ولئلا يسمحَ للذَّنْبِ أن يشيرَ بسبَّابَتِهِ إليهِ متَّهِمًا من دونِ أن

يتيحَ له فرصةَ الدّفاعِ عن نفسِه، بحثَ عن شخصِه المُعارِضِ؛ فـإذا به يغُـطُّ في نومٍ عميقٍ على المَقْعَدِ الخلفيِّ من السّـيارةِ؛ فأيقظَهُ، طالبًا منه أن يركِّزَ معَهُ ويصـغي بتهذيبٍ شـديدٍ ومن غيرِ اعتراضٍ، وكذلك من غيرِ أن يقفَ في صفِّها مُدافِعًا عنها كما فعلَ قبلَ أن يغطَّ في نومِه.

ولقاءَ إصغائِه الذي سيتيحُ له التّفكيرَ بصوتٍ عالٍ، وبطريقةٍ أوضـحَ؛ سـيعطيه معطفَهُ ليتدفأَ به، وسيسـمحُ لـه أن يظلَّ مُستلقيًا على وضعِه هذا، وعلى وجهِه مسحةُ هدوءٍ سيعتبرُها من سماتِ فلاسفةِ الإنْصاتِ، لا من سماتِ النِّعَاسِ؛ فوافَقَ المُعارِضُ وتسـلَّمَ المعطَفَ فغطّى به أعلى رأسـه وكتفيه، مُبقيًا وجهَهُ مكشـوفًا ليتيحَ لصديقِه التَّأكدَ من أنَّهُ لم يَنَمْ، إن طالَ أمَدُ الحديثِ، ومبقيًا أذنَيْه عاريتينِ أيضًا، فشَرْطُ عُرْيِهما سببُ دفئِه اللّذيذِ هذا، من دونِ أن ينسـى شرطَ انطباقِ شفَتَيْه إلا عندَ الموافَقَةِ.

– أتوَقَّعُ...

قالَ لمعارِضِـه الذي وافقَ سـلفًا على ما سـيقولُ، مبتسمًا ابتسامةً صامتةً وعريضةً لاحَتْ له من خلالِ المرآةِ:

– أن تُبقـيَ هاتفَها مُغْلَقًـا لأيام قد تطولُ، وأنْ لا تسـمحَ لأحدٍ، حتى لي أنا، أو... وخاصةً أنا، باختراقِ صمتِها الحزينِ المرتجِـفِ المخبَّـإِ تحتَ الأغطيـةِ كما تختبئُ حضـرتُكَ الآنَ؛ كَوْني – حسـبَ رأيِها وربما أشاطِرُها الرَّأيَ– تسبَّبْتُ لها اليومَ بأوجاعٍ مفاجِئَةٍ!

وأوضحَ:

– بأوجاعٍ نفسيَّةٍ مفاجِئَة!

وتابعَ:

– ولكـنْ يا عزيزي، في النِّهايـةِ، سـتنهَضُ لتجابهَ الحياةَ، وتكدَحَ، وتتأمَّلَ، وتكتبَ، وتُدرِّبَ، نافضَـةً عنها غبارَ المعركةِ؛ فتستحمّ من جديدٍ، وتخرُج إلى الشَّمسِ، باحثةً هذه المرةِ عمَّا يؤكِّـدُ، من لقائنا الأخيرِ، ما يكرِّسُ وجهـةَ نظرِها فيما يتعلَّقُ بحكايتنا التي تصـرُّ أنها «جميلةٌ»، مُسـتبعِدَةً كلمةَ «البشعة» التـي أُقسِـمُ أنَّني لم أتلفَّظْ بها؛ بل (فـيروزُ) هي التي غَنَّتْها سـائلةً حبيبَها عما تناهى إليها من قولِه عن «حبِّها وحبِّه» بأنَّه حرفيًّا: «مِشْ حلو»، فسـمعَتْها طبعًا عشراتِ المرّاتِ، وطبّقَتْ عليها نظريةَ التّأويلِ الظّالمةَ والمجحِفَةَ.

كما أتوقَّعُ...

أنَّها ستسحضرُ جملتِي التي لم تُولِها، طبعًا، اهتمامًا كافيًا، رُغْم محاولتي الحثيثةِ- في لقائِنا صباحًا- جَعْلَها تركِّزُ عليها، والتي قلْتُ فيها إنها كانَتْ خلال تطبيقِ سنواتِ قراري: «في داخلي، في كلِّ لحظةٍ»، فلم تتوقَفْ عندَها؛ بل تجاهَلَتْها عَمْدًا، وتجاوزَتْها- بالتّأكيدِ- إلى ألفاظٍ أُخرى تحتملُ تأويلاتٍ مدعومَةً بأدلَّةٍ تعضُدُها، مُستبعِدةً- على ما أَظنُّ- وصفَ ضَجَرِي من دونِ وجودِها في حياتِي بالقاتلِ، وبأن صعوبَةَ وجودِ هذا الضَّجرِ أعْتى من صعوبةِ تنفيذِ قراري!

تجاهلَتْها عَمْدًا كما تجاهَلَتْ ما غنّيتُه لها من كلمات جوزف حرب؛ بل قرأْتُ في عينيها شماتةً خبيثة؛ لأنني نلْتُ- عن جدارةٍ- جزاءَ «زَعَل» «طَوَّلْ» لا بُدَّ وأنها وصَفَتْه بالسّخيف، المُهَلْهَل، الذي لا علاقة لها به من قريبٍ أو بعيدٍ، كما لا علاقة لها إن «بَكّاني شِتي أيلولْ» و«فَيَّقْني» عليها!

وزفرَ، ثم تابعَ:

- حسنًا، فلتقُلْ ما تشاءُ، ولتقُلْ لي شخصيًّا: «ما كانَ أغنى الهوى عن رحلةِ النّسيانِ الموجِعَةِ والخنفشاريةِ وأَغْناني»! ومع

ذلك، أتوقعُ، أيها العزيزُ، أن يساعِدَ على شفاءِ جُرحِها- الذي يُدهِشُني عمقُهُ رُغْمَ أنَّ عمرَهُ ساعاتٌ؛ بينما عمْرُ جرحي سنواتٌ- تذكُّرُها أنَّه لم يحدُثْ مرَّةً، مذ تعارفْنا قبل حوالي مليون سنةٍ، أن وجَّهْتُ إليها أيَّ نقدٍ؛ بل على العكس، كنْتُ أعزو إعجابي بها، فحبّي لها، إلى كونِها تعملُ وتخلُقُ، كلَّما وصلَتْ إلى هدَفٍ، هدفًا آخرَ طازَجًا طزاجَةَ زَجَلِنا وتُفَّاحِنا وقيامَةَ عاصمَتِنا، تسْعى إليه بما مُنِحَتْهُ من حيويَّةٍ وروحٍ ثوريَّةٍ تستحقُّ معها أن تحظى بما أُفاجئُها به من دلالٍ وسْطَ أجواءٍ احتفاليَّةٍ.

وتنهدَ:

- وأتوقَّعُ، يا صديقُ، أنَّني سأعودُ من جديدٍ لأنتظرَها بشغَفٍ بناءً على أوامرِ الصُّدْفَةِ، وسنهرُبُ- هي وأنا- ثانيةً إلى المجهولِ بمعناهُ الإيجابيِّ الذي يحتضِنُ في أعماقِه بذرةَ المغامرةِ؛ وستكونُ بين جمهوري إنْ لم تتعارضْ محاضرَتي- مثَلًا- ووقْتَ قيلولَتِها المقدَّسَ، أو ووقتَ تدريبِها، في قاعةِ مسرحِ البلديةِ الملاصقَةِ لبيتِها أو لسيارَتِنا المزروعةِ هنا منذ ساعاتٍ، فرقةَ الصِّغارِ التي عرفْتُ مؤخَّرًا أنّها كوَّنَتها خلال فترةِ «كورونا»؛ أو ووقتَ قيامِها بواجباتِها العائليَّةِ الطّارئةِ وغيرِ الطّارئةِ.

وطبعًـا، سأحضُـرُ مسـرحياتِها رُغْم أنني تجـاوزْتُ مرحلةَ الطُّفولةِ من زمانٍ بعيدٍ بعيدٍ ولم تعدْ تسـتهويني موضـوعاتُها كثيرًا، ولكنَّني سأجِدُ- كما وجدْتُ في مسرحيتِها (ديدون)- موضوعًا يخُصُّ الكبارَ أستدرجُها إلى مناقشَتِهِ حتى لو تمنَّعَتْ، لأسـتطلعَ آراءَها الخطيرةَ والشّـريرةَ- كنظريةِ سَـطْوةِ الحبِّ- والتـي تخبئُها ببراعةٍ كما خبـأّتْ (إينياس)، تحتَ عنوان أنَّها لا تهمُّ الصِّغارَ ولا تهمُّها شخصيًّا ما دامَتْ لا تكتبُ إلا لهم.

آه، على أسـاسِ أنها ليسَتْ كبيرةً، وليسَتْ همومُ الكبارِ- بدءًا من السّياسـةِ وانتهاءً بالحبِّ- من اختصاصِـها؛ بل هي كبيرةٌ فقط عندما تَرفعُ فجأةً عُصيَّ القيم الإيجابيةِ أو السّلبيةِ التي يلوِّحُ بها التّربويونَ لكلِّ مَن تسوِّلُ له نفسُهُ ممَّن يكتشفُ في نفسِـهِ موهبـةَ الكتابةِ للصّـغارِ خارجَ خطوطِهـم الحمراءَ، قارعينَ هذه العُصِـيِّ، منبِّهينَ إيَّاه بديكتاتوريةٍ لا تقلُّ خطورةً عن الدِّكتاتورياتِ المنتشرةِ بسخاءٍ حولَنا، إلى وجوبِ الالتزامِ بالقوانينِ الصَّارمةِ التي وضـعَ أُسُسَها جهابذةُ التّربيةِ، والتي يجبُ ألا تُخرَقَ من قِبَلِ صُعْلوكٍ أدبٍ بحجةِ «الإبداعِ».

حسنًا، حسَنًا!

أنـا لا أعرفُ إنْ كانَتِ اليومَ خـارجَ مافياتِ أدبِ الأَطْفال التَّربويةِ كونها قد دخلَـتْ إلى عالم الكتابةِ حديثًا من خلالِ الإبـداعِ، ولكنني- في الوقْتِ نفسِـهِ- لا أثـقُ بقدرتِها على تجـاوزِ خطـوطِ التّربويينَ الحمـراء؛ لأنها منهم كونَهـا بدأَتْ معهـم لسـنواتٍ قبلَ أنْ تكتشـفَ طَفْرةَ الإبـداع؛ والدّليلُ إخفاؤُها (إينياس) الذي أرَّقَها وجودُهُ وأخذَ من تفكيرِها وقتًا لا يُسـتهانُ بهِ. أخبرني من فضـلكَ: مَن أخفى (إينياس)؟ التّربويةُ أم المبدعةُ؟ هه؟

ولَّما انتبَهَ معارِضُهُ أنه ينتظِرُ جوابَهُ؛ لعنَ السّاعةَ التي احتاجَ فيها إلى دفءِ المعطفِ، ومع ذلكَ، تهرَّبَ من الجوابِ هامسًا:

- صائبٌ، كلامُكَ صائبٌ!

والتفتَ إليه في المرآةِ مؤكِّدًا:

- التّربويَّةُ طبعًا!

فأجابَ المعارضُ وقد أُنقِذَ:

- طبعًا!

- ولكنْ، أتعرفُ؟

- تفضّلْ!

– إن طغَتْ مواقِفُها التّربويَّةُ على موهبتِها؛ فلن يصــفِّقَ لها الجمهورُ بعدُ. وستكونُ مثلَ بقيةِ التّربويينَ الذينَ سرقوا أدبَ الأَطْفال واعتبروهُ ابنَهم، بينما هو ابنُ الأدبِ، يحشونَهُ بالقِيَم أولًا وثانيًا وثالثًا، واضــعينَ الموهبــةَ في المرتبةِ الرّابعةِ، أو قد لا يعنيهم وجودُها.

– صائبٌ، كلامُكَ صائبٌ!

– وستعودُ، مثلَ «الشّاطرة» للاقتباسِ من جديدٍ.

– صائبٌ، كلامُكَ صائبٌ!

– فالجمهورُ، يا عزيزي، لن يبحثَ لها مثلَما فعلْتُ في تونسَ عــن هدفٍ لم يخطرْ على بالِها، كذلــكَ الذي جئْتُ به مُثْنيًا على فكرةِ أنَّ إيجادَ «فتاةِ أحلامِ الملِكِ» لا يعني أنَّ هذا الملكَ هو «فتى أحلامِها»؛ فالجمهورُ ليسَ حبيبَها!

– لا، طبعًا لا!

وزفرَ:

– وبعيدًا عن قضيةِ مسرحيتِها، وبالعودةِ إلى «قصَّتِنا»؛ لن أخفــي عنكَ، يا صــديقي، أنني– ومن موقعــي المقدَّسِ هذا المُطِلّ على شــبّاكِها البَهِيّ– سأُرسِــلَ لها باقةَ زهورٍ بيضاءَ في

عيدِ الميــلاد موقَّعَةً من (بابا نويل) شخصــيًّا، وأُخرى حمراءَ في عيــد الحبِّ، موقَّعَةً من (كيوبيدْ) شخصــيًّا، بدءًا من هذه السّــنة، وكلَّ سَنَة، كلَّ سَــنَة... وستسارعُ إلى الاحْتفاء بهما كلَّ سَــنَة، كلَّ سَــنَة؛ رغــمَ انفعــالَيّ الأملِ والخيبــةِ اللّذين سيتنازعانها وقْتَ تتســلمُهُما، ولكنَّ الانفعالَ الأولَ سيغلبُ الثّاني في كلِّ مرةٍ. وستضــعُهما في المزهريَّة الكريستاليّة التي أهديتها إيّاها يومًا، وستحيط خصرَ المزهريَّة بالّشريط الأبيضِ، فالأحمرِ؛ وستصــطادُ من «أباجور» نافذة غرفةِ نومِها الخشبيّ الأحمر خيوطَ شمســيَ الدَّافئة، وسأسمعُ موسيقا ضحكاتِها المستســلمة بِحُريّةٍ لإلهامِ الحبِّ الذي لا يُمنَحــهُ المزيَّفونَ ولا يَمنحونَهُ.

– صائبٌ، كلامُكَ صائبٌ!

– وأُقسِــمُ أنْ لــن أخترقَ نظامَ الزّهــور الثُّنائيّ ما حييّتُ؛ حتى لــو غامرْتُ بـ«أخــذِ إجازةٍ» ما، في زمَنٍ ما، لســببٍ ما، ستُدرِجُها هي تحتَ عنوانٍ «فَوْقانيٍّ» ما يبدأُ بكلمةِ «حريّة...»، يُضــافُ إلى مجموعَــةِ عناويــنَ تبدأُ بالكلمــةِ الرَّنّانَــةِ ذاتِها وتُستَكْمَلُ حســبَ موضــوعِها وزمانِها ومكانِها، مُذَكِّرَةً إيايَ

أن هذه العناوينَ تُمنَحُ فقط لأربعةِ أشـخاصٍ بينَ آلافِ البشرِ، ثلاثةٌ منهم صودِفَ- ويا لَغرابةِ الصُّدَفِ- أنَّ دماءَهم تجري في عروقِها بحُكْمِ قانونِ قَرابةِ النَّسَبِ الذي تعتبرُه خُرافةً- وليسَ بالضّـرورةِ أنَ أتبنّاهُ- والرّابعُ تسـري دماؤُه في عروقِها بحُكْمِ قانونِ النَّبْضِ؛ والرّابعُ يعني أنا، كما تعلمُ أيُّها العزيزُ.

وسأشكرُ كرمَها المغمَّسَ بحرَّيَّتِها الخضراءِ ضاحِكًا، محاولًا ألّا «أُمَشْـكِلَها» معها كي لا تبرمَ شفتَيْها وتكررَ مقولةَ «الشّيخ نَصْري» في (مُصالَحَة الأخوين رحباني): «أنا ما بْصالِحْ!».

لكنَّها سـتنظُرُ إليَّ شَزَرًا وقد تلبَّسَـها فجأةً جِنِّيُّ «التَّربيةِ» المتمسِّـكُ بتلابيـبِ أصـولِ اللِّياقـةِ؛ وستسـتغربُ توقيتَ ضحكَتِي، ناسيةً- أو متناسيةً- كم تغزَّلَتْ بها، وكم وصفَتني- بسـببِها- بأنَّني «مَهْضوم»، وإنْ كانَتْ تشيرُ بتحفُّظٍ أحيانًا إلى نَزَقي الذي ستضيفُ إليه «اليومَ» صفةَ أنني مزعِجٌ ومُقلِقٌ!

فإنْ لبِسَـتْ قفازاتِها البَيْضاء، والتزمَتِ الحدَّ الأقصى من التّهذيبِ، وصفَتْ قراريَ- لا شَخْصِيَ- بالمزعِجِ والمُقلِقِ!

ولأنَّ المشـمولينَ بالحُرِّيَّـاتِ يعرفـونَ مـن شخصـيتِها ما لايعرفُه الآخرونَ ولا يلمسـونَهُ، أَعرفُ أنها ستنكفئُ محترِمَةً

«إجازَتي»، رابتةً كتفي مثلَ أستاذٍ يتفهَّمُ غيابَ تلميذٍ مجتهدٍ لظروفٍ طارئةٍ لا يودُّ التّحدُّثَ عنها، وفي الوقتِ نفسِهِ يعترضُ أمامَ ذويهِ كونه لا يعرفُ عن إجازَتِهِ متى بدأتْ أو انتهَتْ؛ إنِ انتَهَت!

ومـع ذلكَ، سـأُعاتبُها إن طالَ زمـنُ «احترامِها» هذا، فلم تتصلْ بي محاولَةً الاسْتفهامَ عن سببِ طولِ غيابِي؛ وسترفعُ أنفَها عاليًا، كما حصـلَ صـباحَ اليوم، قائلةً بتصـلُّف: «أنا ما بتِّصِـلْ بِحَدا!». وسأَنظُرُ إليها مُخَفِّضًـا إطارَ نظارةِ القراءةِ إلى أرنبةِ أنفي، رافعًا حاجبيَّ إلى حدود السَّماء، مُستنكِرًا جوابَها «الغاطِسَ في التَّواضُع»!

ولن أخشى- كما حدثَ صـباحًا- أنْ أَمُدَّ لساني كطفلٍ مُدَلَّلٍ، وربما متَنَمِّر، مُقَلِّدًا صوتَها الرّفيعَ ومُعيدًا جملتَها نفسَها ولكن بصـوتٍ ممطوطٍ، ثم لا ألبثُ- كمن يصـفعُ مُذْنبًا- أن أُقطبَ حاجبيَّ مصـحِّحًا معلوماتِها بصـوتٍ حازمٍ مجرَّدٍ من كل رقَّـةٍ، مُرْفَقٍ، كما تخيلْتُ وتخيَّلَتْ، بلحنٍ شـرقيٍّ متموَّجٍ تشتركُ في أداءِ إيقاعاته آلات القَرْع، كالدّربكة والدَّفّ والرّقّ والصّنجات والإكسـيليفون مع الدّرامز، مُظْهِرةً حالة التَّوجُّهِ

الشّـديدِ الحَذَرِ الـذي يُسـتخدَم فيه مصـطلَحُ (البلاغ رقم واحد) حينَ تقومُ حركةٌ انقلابيَّة من جهةٍ ما، داخلَ السُّـلطَةِ الحاكمـة أو خارجها، مُطيحـةً بالهيئَةِ الحاكمة، ومُـنَصِّـبة نفسها بديلًا لا يُـناقَـش ولا يُعتَرَضُ عليه.

- أنا «مِشْ حَدا»!

وسـترتعِش كما ارتعشَـتْ قبلَ ساعاتٍ، وسـتبدو- بعد جملتي المقتطَعة من أغنية فـيروز- متفاجِئةً، خَجِلَةً، مرتبِكَةً، وشـاحبةً للغايـة، كمـن جُـرِّدَتْ فجأةً مـن كل أسـلحتها. وسـتتظاهَرُ أنَّها زلّةُ لسانٍ، وستعتذرُ مني ومن (فرويد) أيضًا، وسـتهمس وهي تعانقني: «ولا إِنْتَ العِـدا»؛ فأغمضُ عينيَّ مُسـامِحًا، متذوِّقًا رائحةَ عطرِها الذي أنعشَ رئتيَّ صباحَ اليوم والذي خبّأتُ مِنديلَها الحريريَّ المنسِـيَّ «العَبيقَ الضَّـوْع» في دُرْجِ مكتبي، وأقفلتُ عليه كَمَن يقفلُ على «كلِّ ثروته»!

وأتوقَّعُ...

أن ستعودُ قريبًا لتقودَ، أيها العزيزُ، سيارتَها، وستصغي موافِقةً علـى كل كلمـةٍ وردَتْ في أغنيـة: What a wonderful world التي رافَقَتْها في طريقِها إليّ، كما أخبرَتني.

أو- خطرَت على بالي فكرةٌ- ستستبدلُ الأغنيةَ بأغنيةِ La vie en rose للويس أرمسترونغ نفسِهِ والتي سأرسلها لها صباحَ غدٍ- فتَحَتْ هاتفَها أو لم تفتحْه- وستدمِنُها كما تدْمِنُ كلَّ ما ألمحُ إلى إعجابي به، بل ستنتقل مع أجواء الأغنية الثّانية من عموميَّةِ المحبَّة إلى خصوصيَّةِ الحبِّ.

وبعد غدٍ- فتَحَتْ هاتفَها أو لم تفتحْه- ستصلُها أغنيةُ Bésame Mucho، لـ André Rieu & Laura Engel.

وبشغَفٍ أعهدُه بها، ستسمعُهُما فكرةً فكرةً، جملةً جملةً، كلمةً كلمةً، وحرفًا حرفًا، مرَّاتٍ ومرّاتٍ.

وبعدَ بعدَ غَدٍ، ستصلُها أغنيتنا

Nat King Cole - Autumn Leaves

وبعدَ بعدَ بعدَ غَدٍ، وبعدَه، وبعدَه... سأرسلُ لها- فتَحَتْ هاتفَها أو لم تفتحْه- «باقةْ غْنَاني» كلها زُهور، وطُيور، وأَقْمار، وفَراشات، ونجوم، وغيوم، ورقص، ودبكات، وغَزَل، وقُبلات؛ فأكونُ كـ«مَليكِ جنٍّ» (جبران خليل جبران)، عاشِقًا، مُراهِقًا، ولهانَ، يتوقُ إلى رؤيةِ مَن يهوى.

وبما أنني- كما يقول مارون النّقّاش- «أبو الكَواسِم

والطَّواقِم»، سأهديها تصميمَ مسرحِ كلِّ مسرحياتِها التّالية، مسرحيَّةً مسرحيَّةً، مُسْتخدمًا قوانين الجمال اللَّمسيّ، والبصريّ، والسّمعيّ، والشّعوريِّ؛ مازجًا بين الرّسم الحرّ والهندسي، والأوتوكاد، والمنظور الهندسي، وما لا يخطر على بالِها من تكنولوجيا خامات الدّيكور كيْما تغمرها البهجةُ تلوَ البهجةِ.

والتفَتَ إلى معارِضِه:

– شايِفْ شو «زنحَةْ» هذه الـ(كَيْما) التي سرَقْتُها منها؟ ولا تقل لي إنها «مهضومة»!

– لا، بل، صائبٌ، كلامُكَ صائبٌ!

يعني افهمني، ما بْيِسْوا مطرحْها (حَتّى)، يللي هيي أخف «زناخةً» من (كَيْما)؟

– صائبٌ، كلامُكَ صائبٌ!

– ولكنني بدأْتُ أعتادُ «زناختَها»؛ أقصد (كَيْما) طبعًا!

– صائبٌ، كلامُكَ صائبٌ!

– المهم، يا عزيزي،

ستفكُّ هذه (الأَغْلَى) أَسْرَ هاتفِها، وستبحثُ أوَّلَ ما

تبحثُ عن اسْــمي فيه، وستجيبُ عن ســؤالِي الذي طرحْتُهُ عليها اليومَ عند البابِ بكلمةٍ واحدةٍ حلوةٍ ودافئةٍ:

«نعم»!

(17)

وبمجردِ أن انطفأَ ضـوءُ غرفتِها، وأُغلِقَتْ ستائرُ شبَّاكِها التي اختارَ منذ سـنواتٍ بعيدةٍ لونَها الباستيل المتدرّج من الأصفرِ الدّاكنِ إلى البرتقاليّ، فالوَرْديّ، تمامًا كما اختارَ ملمسَها ونمطَها بالإضـافةِ إلى قدرتِها على السّماحِ بمرورِ الشّمسِ إلى سريرِها صـباحًا وحجْبِ كلِّ ضوءٍ من الخارجِ إلى الدّاخلِ ليلًا لتغفو بأمانٍ، جامعًا بين مهمتِهِ كمهندسِ ديكور و«متعدٍّ» على مهمةِ المصمِّم الدّاخليِّ؛ أدارَ مفتاحَ سيارتِهِ، واضعًا في جيبِ سترتِهِ الهـلالَ الذي قطَفَهُ للتّوِّ وبعضَ النّجومِ ومعها بضـعةُ أحجارٍ كريمةٍ مما تركَهُ «الحافرُ الفضّـيُّ» على تلالِ بلدتِها، متوجهًا إلى بيتِه، ناثرًا على فراشِ سـريرِهِ الهـلالَ والنّجومَ، متمنيًا- وهو ينثُرُ الأحجارَ الكريمةَ تحتَ وسـادتِهِ- أمنيةً سرّيَّةً بهيَّةً، قبلَ أن يسدلَ على شبّاكِهِ توأمَ ستارةِ غرفةِ نومِها، ويغرقَ في نومٍ يزيحُ عـن كاهلِ ذهنِهِ ما تبقّى من أفكارٍ غائمةٍ تحاولُ التّسـلُّلَ إلى رأسِـهِ مُساهِرَةً، مُسامِرَةً، أو مُناقِشَـةً، هاربًا برشاقةٍ منها، رافعًا

الغِطاءَ فوقَ رأسِــهِ، منتظِـرًا- بدءًا من هــذه اللَّحظةِ- وبكل الثّقةِ التي يوليها كلامَ جدَّتهِ التي تلوِّحُ له من السّــماءِ بحُبٍّ غامِرٍ، استجابةَ «الحافرِ الفضّيِّ»!

انتهت

5 تشرين الثّاني 2020

الكاتبة

*** د. إيمان بقاعي.**

* أستاذة الأدب العربيّ وأدَب الأَطْفال والشَّباب وأستاذة الكتابة الأكاديميَّة.

* الجنسية: اللُّبنانيّة.

* عضو اتّحاد الكتاب اللُّبنانيّ، وعضو نقابة الفنانين اللُّبنانيّين- كتَّاب الدّراما.

مؤلفاتها:

أولًا- كتب لغوية:

1 - مُعْجَم الحُروف (دار المدار الإِسْلاميّ، 2003).

2 - مُعْجَم الأَسْماء (دار المدار الإِسْلاميّ، 2003).

3 - مُعْجَم الأَفْعَال (دار المدار الإِسْلاميّ، 2003).

ثانيًا- كتب أدبية:

1 - (نقد): نازك الملائكة والتَّغيرات الزَّمنية (بيروت: دار الكتب العلمية، 1995) / سعيد عَقل: الإبحار إلى فينيقيا (بيروت: دار الكتب العلمية، 1995) / محمد الفيتوري: الضَّائع الذي وجد نفسه (بيروت: دار الكتب العلمية، 1994) / معروف الرّصافي: نارٌ أم كلِم (بيروت: دار الكتب العلمية، 1994) / سليمان العيسى: منشد العروبة والأَطْفال، إلياس

أبو شـبكة والفردوس المشتهى (بيروت: دار الكتب العلمية، 1995) / نزار قباني- شاعر فوق الماء (بيروت: دار الفكر اللُّبنانيّ).

2 - (تحقيق): كتاب الحيـوان للجاحظ (بيروت: أكاديميا) / ديوان أبي تمام (بيروت: مؤسسـة النُّـور للمطبوعات، ورقـي: 2000) / ديوان الإمام الشَّـافعي (بيروت: مؤسسـة النُّـور للمطبوعات، ورقـي: 2000) / ديوان البحـتري (بيروت: مؤسسـة النُّـور للمطبوعات، ورقـي: 2001) /ديوان الأخطل (بيروت: مؤسسة النُّور للمطبوعات، ورقي: 2001).

3 - قصـص الأَطْفال (ماهيتهـا، اختيارها، كيف نرويها): (بيروت: دار الفكر اللُّبنانيّ، ورقي: 2003).

4 - فن قصـة الأَطْفال: (بيروت: دار الهادي للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، ورقي: 2004).

5 - المُتْقَن في الإنشاء وتحليل النُّصوص وتصميم الموضوعات (بيروت: دار الرَّاتب الجامعية، ورقي: 2006).

6 - المُتْقَـن في الأدب العربيّ المعاصـر (بـيروت: دار الرَّاتب الجامعية، ورقي: 2007).

7 - المُتْقَـن في أدب الأَطْفال والشّـباب لطـلاب التَّربية ودور المعلمين (بيروت: دار الرَّاتب الجامعية، ورقي، 2011).

8 - الوطـن في أدب الشَّراكسـة/الأديغه (العربـي والمعرَّب): ورقي: (دمشـق: المنتدى الثّقافي الشّركسـي، 1997)، (إلكـتروني). إلكتروني (نيل وفرات، 2014).

9 – قصـة الأَطْفال والنَّاشـئة في لبنان (جدليّة الشَّـكل والمَضمون): كتاب أكاديمي، (إلكتروني).

10 – الشَّـريف جبارة الصّفار: نبض الشّـعر النّبطي (بيروت: النّخبة للتَّأليـف والتَّرجمـة والنَّشـر، ورقـي، 2011)، وإلكتروني (نيـل وفرات، 2011).

ثالثًا– روايات وقصص:

1 – عـزَّة: (بـيروت: دار الكتاب اللُّبنانيّ، ورقـي، ط1: 1980، ط2: 1996).

2 – الأرملـة: (بـيروت: المركز العربـي للثَّقافة والعلـوم، ورقي، ط2: 1996).

3 – أجيئكِ حيث تكونين (قصص قصيرة) (إلكتروني: 2008).

4 – رواية الأَثير (2020).

رابعًا– قصص للأطفال والنَّاشئة:

1 – حواسُنا (5 قصص): (بيروت: الدَّار النَّموذجية، ورقي، 1999).

2 – قانا (قصة للنَّاشئة): (دمشق: دار علاء الدّين، ورقي: 1999).

3 – سلسـلة مذكرات الأنسة أديبة: (دمشـق: القمر الصَّغير، ورقي: 2004).

4 – سلسـلة البيئة للأطفال: (بـيروت: دار الرَّاتـب الجامعية، ورقي: 2007).

5 – خَشَـبُونا (قصة للنَّاشة: 12–15 سنة)، رسوم: أحمد حاج أحمد، (إلكتروني).

6 –مغامرات عطلة الرَّبيع (قصة للنَّاشئة)، (دار الهدهد: دبي، الإمارات العربية المتحدة).

7 –أديوخ (قصــة للنَّاشة: 12–15 سنة)، رســوم: أحمد حاج أحمد، (إلكتروني).

8 – فيللا الأستاذ ظريف (قصة للنَّاشة: 12–15 سنة) (إلكتروني).

9 – ليا تســاعد عمو المسحر، رســوم: ضحى الخطيب،(5–8 سنوات)، (إلكتروني).

10 –كلب الحراسة، تصميم: غريد جحا، (5–8 سنوات)، (إلكتروني).

11 – حكاية جديدة عن النّملة والصّرصــور، تصميم: غريد جحا، (8–12سنة)، (إلكتروني).

12 – ســبعة أيام في ضيافة الجدة، تصميم: غريد جحا، (2–5سنوات)، سبع قصص، (إلكتروني).

هـ– كتب أطفال ثقافية وتربوية:

1 – اصنعْ بنفسك: (دمشق: دار علاء الدِّين، ورقي: 1999).

2 – تعالوا نلعب: مجموعة ألعاب لتنمية وتطوير أخلاق الطِّفل وذكائه: (دمشق: دار علاء الدّين، ورقي: 2010).

3 – سلســلة أدب وســلوك الأَطْفال والشّــباب: (بــيروت، دار الرَّاتب الجامعية، ورقي: 2007).

4 – فــن كتابة قصــة الأَطْفال: كتــاب أكاديمــي في أدب الطّفل: (دار الهدهد، دبي، الإمارات العربية المتحدة)، ورقي.

و– مجلات ودوريات:

أ– مجلة أحمد اللُّبنانيّة للأطفال (شخصية شكوى شهريًّا) (2000 – 2014).

ب- مجلة العربي الصَّـغير: الأعداد: 133/135/136/139/140/1
143/142/41.

ت- كتاب العربي الصَّغير: عدد: 159، 2005.

ث- كتاب العربي الصَّغير: عدد: 171، 2006.

ج- العربي: عدد: 576، 2006.

- مجلة أحمد اللّبنانية للأطفال (شخصـية شـكوى شهريًّا) (2000 - 2014).

- مجلة العربي الصَّـغير : الأعداد: 133/135/136/139/140/141/142
143/.

- كتاب العربي الصّغير: عدد: 159، 2005.

- كتاب العربي الصّغير: عدد: 171، 2006.

- العربي: ع: 576، 2006.

- صحيفة أضواء الوطن الالكترونية:

.http://www.adwaalwatan.com/articles

- مدونة حي بن يقظان/مدونة أحمد طوسـون/الحياة للأطفال/شبكة الألوكة (إلكتروني)/شبكة روايتي الثقافية.....

www.circassiannews.com

- صـورة الطّفل اللّبناني في قصـة الأَطْفال والنّاشئة الوطنية: محاضرة ألقيت في تونس (الملتقى العربي لأدب الطّفل: 2019).

- the Asia N: مجموعة مقالات وقصص /2020

مجموعة مقالات أدبية أكاديمية نشرت في (الألوكة).